رواية

إسلام أبو شكير

زجاج مطحون

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

الفصل الأول

لم نكن في وضعٍ، يسمح لنا بالعثور على تفسيرٍ منطقيّ معقول لما حدث. أتكلّم عن نفسي، على الأقلّ. لكنّ الاحتمال الأوّل الذي خطر في ذهني أنّه مكانٌ للاحتجاز. معتقل. رهائن. مخطوفون.. ليس بوسعي أن أؤكّد، أو أنفي.. لكنّ الذي أراه وألاحظه يشير إلى شيءٍ قريبٍ من هذا، دون أن يلغي أيّ احتمالٍ آخر، بالطبع..

معتقل.. أجدني ميّالاً إلى القبول بهذا التفسير. مؤقّتاً، ريثما تتجلى الصورة أكثر، رغم أنّ العديد من الثغرات تتخلّله.. لفتَ انتباهي حجم الرفاهية المتوافرة لنا. غرفة (أعني زنزانة) واسعة جداً، أقرب ما تكون إلى شقّةٍ صغيرة. أسرّة نظيفة. خزائن. ثلّاجة. تلفزيون. ساعة رَقْميّة ضخمة، توضّح- إلى جانب التوقيت - اليوم والشهر والسنة. مشغّل أقراص رَقْميّة صوتيّة. لوحات على الجدران. بعض التماثيل الصغيرة. إضاءة مريحة. حمّام نظيف..

لفت هذا انتباهنا. أنا على الأقلّ. واستغربته كثيراً. قرأتُ وسمعتُ عن أمكنةٍ للاحتجاز، بمواصفاتِ رفاهيةٍ قريبة، أو أفضل، ولكنْ؛ ليس هنا. ربّما. لا أدري. قد أكون مخطئاً، إذ ليس لي تجربة سابقة لأحكم. قد يكون ثمّة حالاتٌ، يُعامَل فيها المحتجزون بهذه الطريقة الخاصة.. قد.. يتعلّق الأمر بالشخصيّة المحتجَزَة نفسها. حساسيّة موقعها. دورها. شهرتها. أو بنوع الاتّهام الموجّه إليها.. غير أنّ شيئاً من ذلك لا ينطبق عليّ. هذا مؤكّد. فأنا- في النهاية - رجلٌ عاديّ جداً. بسيط جداً. لا أجد حرجاً في القول إنّني نكرة في الحياة. ما يشغلني في العادة أمور تافهة إلى الحدّ الذي لا يمكن أن يثير انتباه أحد. وإذا كنتُ قد ارتكبتُ خطأً في حياتي، يستلزم أن أدخل السجن بسببه، فهو لا يتطلّب - بكلّ تأكيد - أيّ ترتيباتٍ خاصّةٍ ومعقّدة من النوع الذي أراه الآن..!!

هل الحكاية مرتبطةٌ بالآخرين الذين يشاركونني المكان؟.. أو بأحدهم؟.. ربّما. وإن كنتُ أستبعد ذلك، وأنا أراهم جميعاً يعيشون أحاسيسي نفسها.. الحيرة. الدهشة. الخوف... لا يختلفون عنّي كثيراً في

هذا..

حسناً.. هنالك ما يجعل هذا الاحتمال هشاً، وغير قابلٍ للتصديق.. المعتقل.. لكننا في حالةٍ لا تسمح لنا بالتفكير أبعد من هذا. سنتجاوز الأمر دون أن نؤكّد، أو ننفي. مضطرّون إلى تقبّل الفكرة مؤقّتاً. سننتظر قليلاً، أو كثيراً، ريثما نتجاوز مرحلة الصدمة.

لم نتبادل سوى القليل من الكلمات، ومعظمها جاء على شكل أسئلةٍ من نوع:

- ما الذي جرى؟..
- ما الذي جاء بنا هنا؟..
- أين نحن؟..
- كيف...؟

ما تبقّى من الكلمات كان مجرّد أصواتٍ غير مفهومة، تنطلق من الحناجر. ولم يكن يقصد بها أن نخاطب بعضنا بغرض التواصل. أنا على الأقلّ. كنتُ أخاطب نفسي في الحقيقة. أمّا هم؛ فلا أستطيع أن أجزم بمَ كانوا يفكّرون، بالضبط. أستطيع أن أتوقّع - فقط - دون أن أجزم. أنا كنتُ أسعل. أو أتنهّد. أو أتأفّف. أصواتٌ مختلفة كانت تنطلق من حنجرتي دون وعي. ربّما كنتُ أحاول أن أتأكّد من أنّني يقظ، وأنّ ما يحدث ليس حلماً..

الحلم.. احتمالٌ آخر. غير أنّي لا أرى مبرّراً مقنعاً للتفكير فيه مطوّلاً. لا سيّما أنّ كلّ شيء يبدو واقعياً وحيّاً، إلى درجة، تجعل التشكيك فيه نوعاً من العبَث.

ومع ذلك، فقد يكون حلماً بالفعل. قد يكون هلوسةً، نجمت عن مادّةٍ، تعاطيتُها بطريقةٍ ما. قد يكون شيطاناً تلبّسني. أو إلهاً أحمق يعبث بي.. قد يكون أيّ شيء.. لا يهمّ.. لا يهمّ..

ومع ذلك، لن أتجاهل هذا الاحتمال. سأفكّر فيه، ولكن؛ ليس الآن.. ثمّ إنّ الحلم - أيّ حلم - يسيّر نفسه بنفسه، بمعزلٍ عمّا أريد، أو لا أريد. لا يتوقّف الحلم

لمجرّد أنّه لم يعجبني أو أثار في نوعاً من الشعور بالدهشة، أو حتى الرعب. سيشقّ طريقه إلى الأمام، ولن يكون بوسعي أن أقاوم أبداً.. والأهمّ أنه سينتهي في لحظةٍ ما. قد يحدث ذلك في اللحظة التالية. ما من حلمٍ - كابوس يستمرّ إلى الأبد..

إلى ذلك الحين، مضطرّ إلى التعامل مع الموقف على أنه حقيقة. خيار صعب، لكنّه الوحيد المتاح أمامي، أمامنا جميعاً، الآن..

ما كان يشغلنا أكثر من ذلك كلّه.. يثير ذهولنا.. أنّ الغرفة كانت بلا أبواب، أو نوافذ!!.. جدران شاهقة.. وسقف.. ونحن في الداخل.. فقط..

عندما استيقظنا، ووجدنا أنفسنا هنا، كان أوّل ما فكّرنا فيه أن نخرج. مؤكّد. ردّة فعل طبيعيّة ومتوقّعة. مسحنا بأعيننا المكان بحثاً عن بابٍ، أو نافذةٍ، أو أيّ فتحةٍ تصلنا بالعالم الخارجي. ولم نجد شيئاً.. لَفَفْنَا الغرفة كلّها. دَقَقْنَا الجدران بقبضاتنا. كانت مصمتةً تماماً. خرساء. وباردة..

قال أحدنا:

- هذا قبر.. ليس غرفة.. ليس زنزانة..

لم يكن يعني أنّه قبرٌ بالضبط. لكنّها الكلمة الأنسب لتوصيف مكانٍ مغلقٍ كهذا. بلا أبواب. ولا نوافذ.. ولا حتّى فتحات تهوية.

أثارت الملاحظة الأخيرة هَلَعَنَا. غياب فتحات التهوية. يعني ذلك - ببساطة - أنّنا سنختنق. بضع ساعات، لا غير، وسنستهلك هذا الهواء كلّه.

تخيّلت نفسي وأنا أصارع من أجل نَفَس هواءٍ، ينعش رئتي. خيوط العَرَق، وهي تغسل وجهي. جلدي الأزرق. عيناي الجاحظتان. عضلاتي المتشنّجة. الصرخات المكتومة التي تنطلق من حنجرتي، ثمّ تتكثّف عند حافّة الفم على شكل رغوةٍ بيضاء حامضة...

استولى علينا هذا الهاجس أكثر من سواه. الموت اختناقاً.. لكنّني لم أفهم.. إذا كان يُراد لنا أن نموت، فلمَ هذا كلّه؟..

ليس أسهل من أن تقتل شخصاً، إذا أردتَ. لا ضرورة لهذه الأجواء المصطنعة كلها. نحن لسنا أشخاصاً في روايةٍ، أو فيلمٍ سينمائي، يحتاج موتهم إلى مؤثّرات خاصّة، ليكون أكثر تشويقاً. يكفي أن يقرّروا موتنا، وستكون أمامهم خياراتٌ لا نهاية لها لنموت حقّاً، وبطريقةٍ بسيطةٍ وسريعة. بطريقةٍ عاديّة، كما يحدث كلّ يوم..

ثمّ..

لمَ هذه المؤونة كلّها في الغرفة؟.. ثلّاجة ضخمة محشوّة بالأطعمة. مخزن في إحدى الزوايا، يمتلئ بكمّيةٍ كبيرة من المعلّبات.. طعام يكفينا، نحن الأربعة، أسبوعين أو أكثر، كما قدّرنا أوّل وهلة..!!

هاجس الموت اختناقاً تراجع قليلاً في ما بعد. تراجع - تماماً - في الحقيقة. استبعدناه، ولم يعد يشغلنا أبداً.. فمع مرور ساعتين، لم تزرقّ جلودنا. ولم تجحظ أعيننا. لم يشعر أيّ منّا بضيقٍ في التنفّس. ما نزال نتنفّس، بطريقةٍ طبيعيةٍ جداً. زفيرٌ وشهيقٌ عاديّان.

أعدنا النظر في أرجاء الغرفة. لا جديد. لم نجد أيّ فتحاتٍ للتهوية. ومع ذلك، فقد كان الهواء يتجدّد، بطريقةٍ ما.. لدينا فضول لمعرفة الآليّة، لكنّه ظلّ فضولاً عابراً سرعان ما تغلّبنا عليه.. هنالك ما هو أهمّ.. الهواء يتجدّد.. ونحن نتنفّس.. يكفي هذا.. مؤقّتاً طبعاً، ككلّ شيء..

أرحنا أنفسنا من رعب الموت اختناقاً خلال ساعات، وعُدنا إلى التفكير، في طريقةٍ للخروج من المأزق.. كنّا قد حاولنا استعمال الهاتف، ثمّ اكتشفنا أنّه مُعطّل. لا نعرف لمَ لم ننتبه إليه قبل ذلك، مع أنّه كان موجوداً، بلا

شك. قفز أحدنا فجأةً، وعيناه مُسلّطتان على نقطةٍ ما في الغرفة. قفز، كما لو أنّه عثر على كنز، وهو يصرخ:

- شباب.. تلفون..

أمسك بالسمّاعة. شدّها إلى أذنه.. ثمّ هزّها بعنف، وأعاد الاستماع. ضرب على الجهاز.. ثمّ تركه، وهو يصيح:

- اللعنة.. معطّل.. لا يعمل..

لم نثق بمحاولاته. تناوبنا على الهاتف جميعاً. حاولنا. تفحّصنا الأسلاك. جرّبنا أن نتحدّث. نَقَرْنا على الأزرار جميعها. نَفَخْنا في السمّاعة. رفعنا أصواتنا. خفضناها. تضرّعنا. شتمنا.. لم يكن ثمّة أيّ استجابة..

حمّى العثور على طريقةٍ للخروج وصلت ذروتها، ونحن نصرخ في وقتٍ واحد، كذئاب جريحة، أو محاصرة وسط دائرة من النار، لعلّ أحداً في الخارج يسمعنا.

قلنا:

- لا نريد أكثر من إشارةٍ بسيطة، تُشعرنا بأنّنا لسنا وحيدين، ومعزولين عن العالم..

فكرة القبر كانت تثير الرعب في نفوسنا. تجعلنا عاجزين، ومرضى. ولم يكن يخفّف من حجم الرعب حقيقة أنّه قبرٌ واسع، ومكيّف، ومرفّه..

استهلكتْ تلك النوبة المجنونة منّا قدراً كبيراً من الطاقة. وجدنا أنفسنا- في النهاية - نلقي بأجسادنا على الأسرّة، ونحن نلهث، ونتصبّب عَرَقاً. لم يكن ممكناً أن نغفو طبعاً. هي محاولةٌ لاستجماع القوى، لا أكثر..

حاولنا - بعد مضيّ وقتٍ آخر - أن نشغّل جهاز التلفزيون. قلنا:

- نشرات الأخبار قد تفيد. قد يتحدّثون، ولو بشكلٍ عابر، عن قصّتنا. هذا إذا افترضنا أنّها قصّةٌ مهمّة،

وتستحقّ أن يشغل العالم نفسه بها، وهو ما نستبعده كلّيّاً.. لكنّه يبقى أملاً، وجدير بنا ألّا نتخلّى عنه، مهما كان سخيفاً وهشّاً..

لم يلتقط الجهاز أيّ إشارة. مجرّد صفحةِ سوداء صامتة.. والنتيجة أنّ الغضب استبدّ بأحدنا، فرمى بجهاز التحكّم على الأرض. رماه بأقصى ما يملك من قوّة. وتناثرت أجزاؤه في كلّ مكان..

استنفدنا - تقريباً - جميع ما أسعفتنا به عقولنا المتعبة من إمكاناتٍ للعثور على طريقةِ للخلاص، أو لفَهم ما يحدث..

وصلنا إلى درجةِ من الإعياء لا تسمح لنا بمزيدِ من المحاولات. استسلمنا في نهاية الأمر. رفعنا الرايات البيض.خرق من القماش وجدناها على الطاولة. ربطناها بحبل، وعلّقناها. قلنا:

- رسالة.. لعلّها تصلهم، بطريقةِ، أو بأخرى..

كنّا ندرك - على نحوِ ما - أنّ الحالة لا يمكن أن تستمرّ إلى الأبد. أتكلّم عن نفسي..

بدأنا نقتنع أنّ من وضعنا في هذا الموقف لا بدّ أنّه كان يسعى إلى تحقيق هدفٍ ما. وأنّه ليس معقولاً أن يدعنا هكذا إلى ما لا نهاية. طبعاً. لا بدّ في لحظةِ من اللحظات، أن يبادر إلى فعلِ شيء. لديه هدف، وسيسعى إلى تحقيقه. لا شكّ أنّه لم يخطّط لهذا كلّه، لمجرّد التسلية فقط.. من الطبيعيّ أن نفترض وجود غرض وراء هذا كلّه. لا نعرف شيئاً عن طبيعته، ولا من وراءه، لكنّه على قدرِ من الأهمّيّة يجعله - بلا شكّ - جديراً بكلّ هذه الجهود المضنية التي بُذلت لتحقيقه.

حسناً..

قد لا يطول انتظارنا. قد لا يستغرق أكثر من بضع ساعات. قد يستغرق أيّاماً أيضاً. أو أكثر.. ما من شيء مؤكّد.. لكنّه لن يستمرّ إلى الأبد حتماً.

أمرٌ آخر.. من الواضح أنّ مَن رتّب لكلّ هذا كان حريصاً على حياتنا. من الواضح أنه لا يريد لنا أن نموت. أعني الآن تحديداً. سيتواصل معنا في لحظةٍ ما. بعيدةٍ أو قريبة. علينا - إذاً - أن نطمئن. مؤقتاً إذا أردنا ألّا نبالغ في التفاؤل.. سيظلّ الموت احتمالاً قائماً. لكنه مؤجَل، لحسن الحظ..

لم نتحدث في أمر موتنا المؤجّل صراحةً. لم نكن في مزاجٍ، يسمح لنا بتبادل أحاديث عَلَنيّة ومباشرة من هذا النوع. ما يزال الوقت مبكّراً لتقبّل فكرة الموت، بوصفها مصيراً نهائياً ومحتوماً ينتظرنا.. لا نتحدث في هذا عَلَناً. نفعله منفردين. وبصمت.. وكلٌّ ضمن ما يشبه القوقعة التي تحميه من عدوى اليأس التي يمكن أن يلتقطها من الآخرين..

أحدنا كان يحمل قوقعته على ظهره، ويذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. لم يتوقّف عن المشي طيلة ساعةٍ كاملة.

الآخر دسّ نفسه داخل قوقعته، مستلقياً على أحد الأسرّة، شابكاً ذراعيه خلف رقبته، ومستغرقاً في أفكاره وهواجسه.

الثالث تكوّر داخل القوقعة على سريره أيضاً، متدثّراً باللحاف.

أمّا أنا؛ فاخترتُ كرسيّاً هزّازاً أمام التلفزيون، ملقياً برأسي إلى الوراء، ومغمضاً عيني.. قوقعة رابعة..

- والحلّ؟!!.. ما الحلّ، يا شباب؟!!..

كان هذا صوت الرجل المتدثّر، وقد أخرج رأسه من اللحاف..

التفتنا إليه جميعاً. لكنّ أيّاً منّا لم يقل شيئاً. كنّا ما نزال مرهقين. كنّا ما نزال بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت قبل أن نقرّر مغادرة قواقعنا. أنا على الأقلّ. لديّ إحساسٌ بأنّ التوتّر والعصبيّة والتصرّف الانفعاليّ لن تؤدّي إلى نتيجة.. لن تغيّر شيئاً.. ثمّ إنّنا جرّبنا ذلك..

عدنا إلى التفكير: من الواضح أنّنا جزءٌ من مخطّطٍ، أُعِدّ له مسبقاً، وعلى نحوٍ دقيقٍ ومدروس، بجميع تفاصيله. ومن المؤكّد أنّ التحضيرات له قد تمّت منذ زمنٍ طويل.

ما نعيشه في هذه اللحظات هو المرحلة الأولى التي بدأ فيها تنفيذ المخطّط، أمّا المراحل الأخرى؛ فعلى الطريق حتماً. نحن لا نعرف شيئاً. نحن أدواتٌ في المخطّط. مجرّد أدوات. لذلك ليس أمامنا سوى انتظار أن تمتدّ اليد التي كانت وراء ذلك كلّه لاستخدامنا.. لتحريكنا..

قلتُ لنفسي:

- هذا إذا استبعدنا احتمال الحلم.. الكابوس.. أو الهلوسة.. أو الوَهم.. أيّاً كان اسمه..

دخلنا الحمام كثيراً. كنّا نتبوّل بمعدل ست أو سبع مرّات في الساعة. أتكلّم عن نفسي. وكنتُ أتناول كمّياتٍ كبيرةً من الماء. ولكنْ؛ ليس بالماء وحده يحيا الإنسان. بمرور هذا الوقت كلّه الذي أمضيناه هنا حتى الآن شعرتُ بالجوع. يبدو أنّني ذكّرتُ الآخرين بجوعهم أيضاً، أو ربّما كانوا جائعين مثلي، لكنّهم ينتظرون مَن يشجّعهم على الأكل. بالنسبة لي، فقد اكتفيتُ بقطعة خبز مع شريحة من مرتديلّا الدجاج، وحبّة بندورة.

وقفتُ عند غلّاية الماء؛ لأعدّ لنفسي كوب شاي. سألتُهم إذا كانوا يرغبون في المشاركة، فلم يمانعوا..

جلسنا حول الطاولة. كانت المرّة الأولى التي نجتمع فيها هكذا. كما لو أنّ القواقع التي كنّا نختبئ داخلها قد تحطّمت، أو تخلّلتها بعض الشروخ التي تجعل من تحطيمها أمراً ممكناً. كانت ساعاتٍ صعبةً من العزلة، وقد انتهت الآن، أو هي على وشك أن تنتهي. يمكن القول إنّه لقاؤنا الأوّل رغم مرور ساعاتٍ على وجودنا معاً. المرّة الأولى التي نتبادل فيها النظرات، مع أنّها كانت خاطفة، ومتردّدة، وحذرة. المرّة الأولى التي نعي فيها وجود بعضنا.. إحساس غامض بالراحة تملّكنا. أنا على الأقلّ. أدرك - الآن - أنّني لستُ وحيداً هنا. ومأساتي ليست شخصيّةً خالصة. هنالك مَن يشترك معي فيها. لن يخفّف ذلك من حدّة شعوري بالمأساة طبعاً، لكنّه قد يساعدني على تحمّلها وقتاً إضافياً آخر.

لم تكن القواقع قد تحطّمت نهائيّاً. كان ثمّة قشور متبقّية، وعلينا أن نتخلّص منها.. قشرةً قشرة.. عمل صعب حتماً، ولكنْ؛ لا مفرّ..

- ما رأيكم؟..

قلت.. محاولاً انتزاع أوّل قشرة..

- هل نحن مختطفون؟..

تساءل أحدنا.. وسقطت قشرةٌ صغيرةٌ أخرى..

- شيء غريب.. لا أستطيع أن أفهم..

أضاف آخر..

- الجوّ حارّ..
- أحاول أن أتذكّر.. لم أفعل شيئاً..
- قد يكون نوعاً من المزاح.. يخطر في ذهني أنّه برنامج تلفزيونيّ.. كاميرا خفيّة، أو شيءٌ من هذا القبيل..
- أستبعد أن يكون سجناً..
- الجوّ حارّ..

لم يكن حواراً في الحقيقة. كنّا نتكلّم فقط، ولا ننتظر تعليقاً، أو جواباً. كنّا نستمتع بمجرّد الصوت يخرج من أفواهنا. يشعرنا هذا بقدرٍ كافٍ من الأمان، فنحن موجودون إذاً، وعاقلون. لم يكن مهماً أن يكون لهذه الأصوات معنى. وغياب المعنى لا يدلّ - بالضرورة - على أنّ القواقع التي نعيش داخلها كانت صلبةً جداً، وعصيّةً على التحطيم. لم يخطر في أذهاننا مثل هذا، لكنّها مرحلةٌ ضروريّة ريثما نلملم ما أمكن من الخيوط المتقطّعة، ونعيد حياكتها..

- الجوّ بارد..
- حارّ..
- الصداع اللعين..
- مَن الذي صرخ تلك الصرخة؟..
- كانت صرخةً مرعبة..
- مَن المجنون بيننا أطلقها؟..
- أنا..

التفتنا إليه. كانت نظراته تسبح في الفراغ. وصوته كان بارداً وحيادياً. كما لو أنّه يُكلّم نفسه. أو كما لو أنّ كائناتٍ أخرى غير مرئيّة كانت تنطق من خلال حنجرته..

- لا أدري.. فتحتُ عينيّ، وكنتُ أظنّ أنّني في بيتي.. لم أصدّق بادئ الأمر.. خيّل إليّ أنّني في حلم..

تعرفون هذا الإحساس.. تخيَلوا معي.. أنام على سريري.. في بيتي.. كما في كلّ ليلة.. ثمّ أفتح عينيَ، فأرى مكاناً آخر مختلفاً كلّياً.. ظننتُ أنّني محموم.. أو أنّه كابوس.. احتجتُ إلى ما لا يقلّ عن ربع ساعة من الصمت، والتفكير.. كنتُم على أسرّتكم مستغرقين في نومكم. أراكم. ولا أراكم. ثمّ لم أجد مفرّاً من التساؤل عمَن تكونون.. لم يكن هذا هو السؤال الوحيد. كانت ملايين من الأسئلة في الحقيقة.. لم أصدّق في البداية.. ثمّ أدركتُ - أخيراً - أنّ الأمر ليس خدعةً.. لم يكن لي دور في ما حدث.. جرى كلّ شيء من تلقاء ذاته.. حنجرتي هي التي انقبضتْ. وحدها فعلت ذلك. انكمشتْ على نفسها. تحوّلتْ إلى حصاةٍ شديدة الصلابة عالقةٍ في حلقي. ظلّتْ تصغر شيئاً فشيئاً، ثمّ لم أعد أحسّ إلّا بحرارتها تكويني.. ثمّ.. ارتختْ فجأةً.. شعرتُ بالهواء يمرّ عبرها مضغوطاً كعاصفة.. لم تكن صرخةً.. كانت شيئاً يتفجّر..

- أفهم ما تقول..
- لا أفهم..
- الجوّ بارد..
- أنت الذي صرختَ إذاً؟..
- ما يعنيني من هذا كلّه هو أن أعرف كيف وصلنا هنا..
- ما من تفسيرٍ آخر.. من المؤكّد أنّ كلّاً منّا تمّ تخديره في منزله.. بطريقةٍ ما.. من خلال الطعام.. الشراب.. الهواء.. ليس صعباً..
- ثمّ نقلونا إلى هنا..
- كيف؟..
- حرارة لا تُطاق...

- المشكلة في المكان ذاته.. كما ترون.. لا وجود لأيّ منفذ.. كيف دخلنا هنا إذاً؟!!..
- أين هم؟.. لم لا يظهرون؟.. شكلٌ جديد من أشكال التعذيب؟.. يجلدوننا بغيابهم؟..
- لا بدّ من وجود منفذ.. مستحيل..
- تفحّصنا كلّ شيء.. حتّى الأرضيّة..
- رأسي يتصدّع..
- يبقى احتمالٌ واحد..
- تطلّعنا إليه جميعاً..
- نعم.. السقف.. من المحتمل أنّهم أنزلونا من السقف، ثمّ قاموا بإغلاق الفتحة بعد ذلك..

وانتقلت أبصارنا إلى الأعلى.. لم نلاحظ ما يدلّ على وجود أيّ فتحةٍ هناك.. لكن السقف كان مرتفعاً إلى درجةٍ، يصعب معها فَحصه عن طريق النظر فقط.. جرّبنا أن يصعد أحدنا على ظهر الثلّاجة؛ ليتأكّد.. جرّبنا ذلك، ونقلنا الثلّاجة من مكانٍ إلى آخر. تفحصنا كلّ شبرٍ في السقف.. كلّ نقطة.. ولم نصل إلى أيّ نتيجة..

تجربةٌ مؤلمةٌ خرجنا منها أكثر حيرةً وإرهاقاً..

لكنّنا كنّا مصمّمين على تجاوز الحالة..

أعددنا قهوة. وجلسنا مرّةً أخرى..

ما تزال بعض قشور القوقعة عالقةً حتّى الآن. الكثير من القشور في الحقيقة. لا بدّ من محاولاتٍ أخرى..

انتبهتُ إلى أنّنا لم نتعارف بعد.. قلتُ وأنا أتأمّل الساعة على الحائط:

- الثالثة والنصف عصراً.. أمضينا حتّى الآن ما يقرب من تسع ساعات.. حان الوقت كي نعرف أسماء بعضنا على الأقلّ..

ارتسمتْ على شفتي أحدهم ابتسامة خفيفة، وهو

يقول:

- لم نفعلها حتّى الآن؟!!..
- غريب.. كيف لم ننتبه؟!!..
- طبعاً.. ليس معقولاً أن نمضي الخمسين سنةً القادمة في مكانٍ واحد. غرفة واحدة. ولا نعرف كيف ننادي بعضنا..
- متفائل جدّاً.. سيتركوننا نعيش خمسين سنة؟.. إن لم يقتلونا هم، فسنموت نحن بعد يومين.. رعباً..

علّق آخر..

- لا بأس.. دعونا من هذا.. أعرّفكم على نفسي..

قلتُ..

ثمّ تابعتُ:

- أنا إسلام أبو شكيّر..

لم أتوقع أن يكون لاسمي هذا الأثر الصادم كلّه.. كما لو أنني ألقيث قنبلةً بين أرجلهم.. رأيثُ أجسادهم تنتفض فجأةً. رؤوسهم التفتث نحوي في عنفٍ، تخيّلتُ معه أنّها ستنفك عن رقابهم. أمّا عيونهم؛ فانفتحت إلى آخرها طافحةً بخليطٍ غير مفهوم من المشاعر. ربّما كان من بين تلك المشاعر شيءٌ من التكذيب، أو الاستنكار، أو الشك، أو الاتّهام، أو عدم الفَهم.. لا أدري.. لا أعرف - بالضبط - ما الذي حدث.. وضعيّات جلوسهم اختلفت. الأجساد البائسة اليائسة المرتخية أصبحت مشدودةً فجأة. الثلاثة معاً. وبالتوقيت نفسه..

قفز أحدهم نحوي. انحنى عليّ، وهو يخاطبني في لهجةٍ، أرعبتني لما لمسته فيها من تهديدٍ مبطّن، لكنّه واضح، بارتكاب حماقةٍ ما:

- نعم؟.. ماذا تفضّلتَ؟.. ما اسمك؟..

كنتُ خائفاً.. راودني إحساس بأنّ صوتي لن يخرج. ومع ذلك حاولتُ. كرّرتُ اسمي أمامه. خرج الصوت مشوّشاً ومتقطّعاً، لكنّه مسموع. لم أشكّ في ذلك.. ثمّ سألتُ:

- ما المشكلة؟..

كان من شأن لهجتي المرتبكة أن تمتصّ انفعالاته غير المفهومة. أن تجعله أكثر هدوءاً. أن تدفعه إلى إعادة النظر في موقفه.. لكنّ ما حدث كان نقيض ذلك تماماً. لقد أثاره ذلك أكثر. أجّج غضبه. فوجئتُ بيديه تنقضّان عليّ. أمسك بي من ياقة قميصي. رفعني عن المقعد، وهو يصرخ:

- نعم.. نعم.. هذه هي القصّة إذاً..

ثمّ ضيّق عليّ الخناق.. شدّ ياقة القميص حول عنقي. احتقن الدم في عُرُوق وجهي..

- تكلَم.. مَن أنت؟!!..

الآن لم يعد بوسعي أن أتفوّه بأيّ كلمة.. كنتُ أسعل فقط.. أو.. أحاول أن أسعل..

نهض الآخران نحوه.. خلّصاني من بين يديه..

- لحظة.. لحظة.. دعنا نفهم أوّلاً..

وجّه أحدهما الكلام إليّ:

- اسمعْ.. مَن أنتَ؟.. قلها بوضوح.. ببساطة.. لا ضرورة للادّعاء..

لم يتح الرجل الغاضب لي مجالاً للردّ.. كان يصرخ كمجنون:

- دعوه لي.. المسألة شخصيّة جدّاً..
- اهدأ رجاءً..

قال أحدهم، ثمّ تابع مكرّراً السؤال نفسه:

- مَن أنتَ؟..
- مَن هو؟.. رجل محتال.. الحكاية أصبحت مفهومة..

اسمع.. لا أريد أن أؤذيكَ، لكنْ؛ إن لم تضع حدّاً لهذه المهزلة، فسأفعل..

صرخ الآخر:

- اصمت رجاء..

تدخل الثالث:

- ما الذي تقصده بهذا كله؟..

كانوا يتكلّمون. اختلطت أصواتهم. لم أعد أميّز بين مَن يسأل، ومَن يجيب.. بين مَن يتكلّم، ومَن يطلق مجرّد صرخات.. بين مَن يشتم ويلعن، ومَن يلعب دور العاقل الذي يريد الإبقاء على حدّ أدنى من الهدوء..

لمَ هذا السؤال الذي يكرّرونه جميعاً: مَن أنتَ؟.. مَن أنتَ؟..ما الذي قلتُه؟!.. لمَ أثارهم اسمي إلى هذا الحدّ؟!..
كانوا غاضبين.. متوحّشين.. عدوانيين.. وكانت عيونهم

تضيق، ثمّ تتسع في تواترٍ سريع.. وشفاههم ترتجف.. مزيج غير مفهوم من الغضب والرعب تحكمه الغريزة وحدها. إلى درجة أنني خشيتُ على حياتي فعلاً.

- تنتحلُ شخصيّتي؟.. مَن أنتَ؟.. قلها قبل أن أضطرّ إلى قتلك.. أتكلّم جاداً..

سمعتُ الرجل الغاضب يقول، فيردّ الآخر:

- شخصيّة مَن؟..
- أنا..
- أنتَ؟..
- ليس الآن.. أجّلوا أسئلتكم السخيفة إلى وقتٍ آخر، أرجوكم.. سأخبركم بكلّ شيء.. دعوني أعرف مَن هو أوّلاً..
- لن نؤجّلَ شيئاً.. تقول إنّه ينتحلُ شخصيّتكَ؟..
- أخبركم في ما بعد..

أجاب في نفاد صبرٍ واضح..

- مهلاً.. مهلاً.. ما هذا الذي تهذيان به أنتَ وهو؟..
- أنا لا أهذي.. أريد أن أفهم فقط.. أؤكّد لكم أنّه وراء المصيبة التي نحن فيها..
- أنتما تكذبان.. أنتَ.. وهو..
- أنتَ لا تعرف شيئاً.. هو الذي يكذب.. أنا هو..
- تعني أنّه اسمكَ أيضاً؟!!..
- أخبركَ بكلّ شيء.. ولكن؛ ليس قبل أن يعترف هذا المجنون، بالحقيقة..
- أنتما مجنونان معاً.. تقولان إنّكما أنا.. كيف عرفتُما اسمي؟.. وكيف تدّعيان أنّكما أنا؟.. مَن أنتما؟..

تدخّل الثالث:

- لحظة.. يبدو أنّ القصّة أكبر ممّا تخيّلتُ..

- ما الذي تعنيه..؟
- لا أعني شيئاً..

صمت لحظة.. ثمّ تابع مستدركاً كما لو أنّه ارتكب خطأً، ثمّ فطن إليه، ويريد أن يصححه سريعاً:

- بل أعني.. أعني تماماً.. من الواضح أنّني وقعت بين أيدي... ماذا أقول؟.. عصابة؟.. أنتم الثلاثة تؤدّون تمثيليّةً سخيفة.. توقّفوا عند هذا الحدّ.. كفّوا عن العبث، وأخبروني ماذا تريدون بالضبط..

كان حواراً مضحكاً في الحقيقة.. ركضاً يائساً ومجنوناً داخل متاهة..

القواقع التي كان كلّ منّا سجيناً داخلها لم تستعد صلابتها وحسب، بل ضاقت أكثر وأكثر.. أتكلّم عن نفسي.. تضاعف إحساسي بالوحدة والعزلة. ما من جسورٍ يمكن أن تصلني بهؤلاء. ما من لغة. كنتُ وحيداً حقّاً. وضعيفاً. وأعزل. ومعرّضاً للكسر في كلّ لحظة.. هذا إن لم أكن قد انكسرتُ بالفعل، وانتهى الأمر..

اخترنا أماكن متباعدة للجلوس. لا جدوى من تضييق المسافات بحسابات الأمتار. نحتاج - أوّلاً - إلى ردم تلك الفراغات الشاسعة غير المرئية، أو المحسوسة، أو القابلة للقياس التي تفصل بين عوالمنا. لم ندرك وجودها إلّا الآن. فراغات تحفّها أسوارٌ شاهقة من الشك والخوف وانعدام الثقة..

ولكنْ ... ما هذا الذي حدث، ويحدث؟.. مهلاً.. هل ينبغي أن أفكّر في هذا مجدّداً؟.. سأكون مغفّلاً لو فعلتُ.. أطرح السؤال فقط، ولن أبحث عن إجابةٍ له. سأتركه معلّقاً في الفراغ. كما هو. وكما يجب أن يكون..

ليس مهمّاً أن يكون لكلّ سؤالٍ جواب..

ليس مهمّاً ألّا يكون لهذا المكان / الغرفة / الزنزانة / الجحيم... أبوابٌ، أو نوافذ، أو أيّ مداخل!!.

ليس مهمّاً أن أعرف كيف انتقلنا إليه.. ننام في مكان، ثمّ نستيقظ لنجد أنفسنا في مكانٍ آخر!!. هكذا. دون أن نشعر بشيء!!.

مَن قال إنّ ذلك يستحقّ أن نُرهق أنفسنا في التفكير فيه؟!!...

وليس مهمّاً - أيضاً - أن أحمل هذا الاسم.. اسمي.. ثمّ أجد مَن ينازعني عليه. ثلاثة أشخاص. كلّ منّا يدّعي أنّه أنا، ويتّهم الآخرين بانتحال شخصيته!!.. لا أدري إذا كانوا صادقين في ما يزعمون. ولكنْ؛ ما الذي يمنع؟.. ألأنّه من المستحيل أن يحدث ذلك؟.. شيء خارج المنطق أن يكون أربعة أشخاصٍ شخصاً واحداً؟.. هه.. المنطق؟!!.. هل المنطق وحده هو الذي يحكم حياتنا حقّاً؟.. نحتاج (أحتاج) إلى التفكير في أشياء أخرى

أبسط من هذا، وأقرب إلى الحقيقة، كما نعيشها، لا كما يفترض هذا المنطق الأعمى أنّها يجب أن تُعاش.. ما أعرفه هو ما أراه، وأحسّه، وأكابده.. وما عدا ذلك ليس سوى أوهام من الغباء الاعتراف بها، أو الانصياع لها..

الأربعة الواحد. أو الواحد الأربعة. هذه النقطة بالذات، لم نتحدّث فيها أكثر ممّا فعلنا.. صرخنا، وتبادلنا الاتّهامات، وهددنا بعضنا بالموت، بل شرعنا في ذلك. كنّا على استعدادٍ لأن ننهش لحوم بعضنا.. ثمّ توقّفنا..

والحقّ أنّنا أهدرنا الكثير من الطاقة والجهد في هذا.. تعبنا.. واستُهلكنا تماماً.. لم نكمل.. لا لأنّنا أردنا أن نكون أكثر حكمة، بل لأنّنا لم نعد نملك ما يكفي من القوّة.. فقط..

ربّما غفوتُ قليلاً. أتكلّم عن نفسي. تعباً. أو يأساً. أو رغبةً في الهروب.. ربّما.. دقائق.. أو ساعات.. لا أعرف.. لكنّني - الآن - مستيقظ. والآخرون أيضاً. أرى ذلك، وأعيه، وأثق به..

مشينا كثيراً. ذرعنا الغرفة طولاً وعرضاً. مرّات ومرّات. دخلنا الحمّام. تبوّلنا. غسلنا وجوهنا. جلسنا. ثمّ عاودنا المشي. دخلنا الحمام ثانيةً. وثالثةً. والمطبخ. رفعنا سمّاعة الهاتف. عضضنا على شفاهنا. فركنا جباهنا. زفرنا. وشهقنا. شربنا المزيد من القهوة.. بصمت.. فعلنا ذلك كلّه دون أن نتبادل أيّ كلمة.. وأيّ نظرة..

الكثير من الصمت. صمت لا يخفي شيئاً وراءه. ليست بلادةً، بالطبع، وليست حالةً من انعدام الحسّ.. لكنّه العجز.. والفراغ..

حوّمت ذبابةٌ حول وجهي. قلتُ:

- سأرى ما يمكن أن يحدث.

حطّت على زاوية فمي. قدّرتُ أنّ نثرة طعام كانت عالقةً هنا هي التي اجتذبتْها. أحسستُ بخرطومها يتحرّك. كانت تلعق الجلد الرقيق الحسّاس هنا. تيارٌ خفيفٌ من الكهرباء أخذ يمتدّ؛ ليشمل مساحة الوجه كاملةً. كان يتقدّم، ومع كلّ مساحة إضافيّة كان يشتدّ. انقبضت عضلات وجهي. ثمّ عضلات الرقبة. الكتفين. الذراعين. الظهر. البطن. القلب. الأحشاء الداخليّة..

ومع ذلك، قلتُ:

- لن أهشّها.. سأدعها تبلغ بي أقصى حدود الألم.. فرصتي الأخيرة.. أن أتجرّع هذا الألم كلّه، متجاوزاً عتبة الاحتمال؛ حيث لا يبقى أمامي خيار سوى أن أنتفض فجأةً.. رعشةٌ مجنونةٌ تُلقي بي خارج هذا الكابوس باتجاه عالم اليقظة الطبيعيّ.. والحقيقيّ..

ما تزال فكرة الحلم تسيطر علي، إذاً. لا بأس. فرصتي الأخيرة كما قلتُ. وسأتخلّى - بعدها - عن الفكرة نهائياً. لن أعود إليها..

دوركِ الآن، أيّتها الذبابة..

الذبابة - الآن - تغمس خرطومها في جلدي، فيما عيناي مغمضتان.. أشعر به، وهو يسير عميقاً داخل اللحم. يدور كمثقاب شاقّاً طريقه عبر العظام. يمزّق الشرايين والأوردة. يقذف أعضاء جسدي بسلسلةٍ من الصواعق. ضجيج لا يُحتمل.. وأنا أكزّ على أسناني.. أكتم الهواء داخل صدري..

ثمّ..

تتحرّك يدي بغتةً. تتمرّد علي، وترتفع إلى الأعلى. أصفع وجهي. وكمجنون أحك زاوية فمي..

أقول لنفسي:

- حان الوقت لمعرفة النتيجة..

أفتح عيني ببطء.. على مهل..

لم يتغيّر شيء..

الذبابة وحدها اختفت. أمّا الأشخاص الأربعة.. فما نزال.. كلّ في قوقعته..

أطلق زفرةً طويلةً وحارّة.. أشعرُ بقليلٍ من الراحة. أشكرُ الذبابة على كلّ ما قدّمته. ممتنّ لها في مساعدتي على الخروج من إحدى الدوّامات.. دوّامة صعبة، حسمتْ أمري تجاهها.. أشكر الذبابة على الألم الذي عشتُه معها.

أكّدت لي أنّني في حالة صحو حقيقيّة.. أنا حقيقي.. والآخرون حقيقيّون.. وعجزنا حقيقي.. وفراغنا حقيقي.. فرضيّة الحلم انهارتْ. لا جدوى من العودة إليها بعد الآن.. أشعر بالراحة حقّاً..

وصمتْنا من جديد..

كنّا ما نزال صامتين..

لكنّ أحدنا، لستُ أنا، قرّر في نهاية المطاف أن يقول شيئاً:

- اسمعوا.. دعونا نوضّح بعض الأشياء.. أنتم رتّبتُم لهذا كله. ولا شكّ أنّه استغرق منكم وقتاً طويلاً.. لن أسألكم لماذا، وكيف.. ثمّ تزعمون أنّكم أنا.. لن أسألكم أيضاً.. لكنّني أريد أن أعفيكم من أيّ جهودٍ مضنيةٍ أخرى.. أريد أن أوفّر عليكم الوقت كذلك.. لا ضرورة لهذا كلّه.. أنا الآن جاهز تماماً، ومستعدّ لتنفيذ ما تريدون جميعه.. لنقل إنّني لم أعد أحتمل. لقد وصلتُم إلى هدفكم بأسرع ممّا كنتم تتوقّعون. أقول لكم بكلّ وضوح. لا مبرّر للاستمرار في مزيدٍ من هذه التمثيليّات السخيفة. لم يكن لهذا ضرورة منذ البداية.. ومع ذلك، فشكراً لكم؛ لأنّكم أحسنتُم الظنّ بي. تصوّرتُم أنّني أملك من القوّة والصلابة والعناد ما يتطلّب هذه الألاعيب الغريبة كلّها. مكان مغلق، بلا أبواب، ولا نوافذ، ولا فتحات تهوية. جدران صمّاء. أشخاص يدّعون أنّني أنا. وطريقة مصطنعة في نقلي من بيتي دون أن أشعر!!.. كم كلّفكم هذا كلّه من جهدٍ ووقت؟!!.. أؤكّد لكم أنّني أضعف وأبسط ممّا تتصوّرون. كان يكفي أن تُرسلوا أحد رجالكم إليّ. كان يكفي أن يرفع إصبعه في وجهي؛ لأستسلم.. كنتُ سأعفيه حتّى من مجرّد توجيه لكمةٍ لي.. يرفع إصبعه فقط..

توقّف قليلاً.. كانت أنفاسه تتقطّع.. كان يلهث ويتصبّب عرَقاً.. ثمّ تابع في ما يشبه البكاء:

- لن أناقش.. لن أسأل.. لن أتردّد.. هاتوا ما لديكم..

قاطعه أحدهم:

- هيه .. توقّف.. تمثّل دور الضحيّة.. لا تحاول.. كفى.. قلتَ شيئاً مفيداً واحداً.. تمثيليّات وألاعيب.. معك حقّ.. لكنْ؛ عليك أن توجّه الكلام لنفسك.. أو أن تدعني أنا أقوله..

ولم يكمل هو الآخر، فقد تدخّل الثالث متذمّراً:

- ها قد عدنا إلى الدائرة المغلقة نفسها..

وصمتنا..

مرّةً أخرى..

وبدا أنّ صمتنا سيطول أكثر هذه المرّة، طالما أنّه ليس لدى أيّ منّا جديد، يمكن أن يضيفه. لكنّ صاحب عبارة (الدائرة المغلقة) - ولم أكن أنا، بطبيعة الحال - تكلّم مجدّداً:

- دائرة مغلقة. شيء أقرب ما يكون إلى الأحجية.. لكنْ؛.. دعونا نبسّط الموضوع.. لنجرّب..

كان صوته منكسراً ويائساً أكثر منه هادئاً..

وأضاف:

- كلّ منّا يدّعي أنّ الآخرين سلبوه اسمه.. كلّ منّا يدّعي أنّه ضحيّة مؤامرةٍ، يحوكها الآخرون ضدّه.. وهو محقّ طبعاً. ليس بوسعنا أن نلومه.. أنا - أيضاً - أفكّر بهذه الطريقة.. أزعم أنّني مستهدفٌ، لسببٍ، لا أعرفه.. هنالك ما تجتمعون عليه ضدّي.. أفكّر بهذا، وأؤمن به إلى درجة اليقين؛ لأنّه ما من خيارٍ آخر أمامي.. إلّا إذا كنتُ أحمق دون أن أدري..

صمتٌ آخر.. لكنّه مختلفٌ قليلاً، فالرجل استطاع أن

يلفت انتباهنا.. قال شيئاً، بدا لنا قريباً ممّا نهجس به.. كنّا كديدانٍ مذعورةٍ محشورةٍ داخل جحورها. وها هي تطلّ برؤوسها إلى الخارج، تستطلع ما حولها. تريد أن تعرف المزيد عن طبيعة هذا الخطر الذي يتهدّدها..

- محقّون - إذاً - في شكوكنا.. أ ليس كذلك؟.. ولكن؛ إلام سيقودنا هذا كلّه؟.. ما من احتمالٍ آخر. سنقتل بعضنا. أؤكّد لكم. أنا مستعدّ للقتال. وأنتم أيضاً، كما أرى في عيونكم. سنقتل بعضنا، وعندئذٍ لن يكون بيننا رابحٌ أبداً..

ثمّ تابع:

- مصير بائس.. وأنا لا أريد أن أنتهي إليه.. سأبحث عن حلّ آخر..

الديدان تغامر بإخراج رؤوسها بالكامل. تفتح عيونها. وتشمّ الهواء من حولها..

- هنالك مخرج وحيد.. ببساطة.. أسهل عليّ أن أعتبرها لعبة من أن تكون معركة.. وقد تكون لعبةً بالفعل.. تُريحني هذه الفكرة..

وأضاف:

- لمَ لا نجرّب أن نلعبها إلى النهاية..؟

فاجأنا اقتراحه. تبادلنا نظراتٍ سريعة. بدا لنا اقتراحاً مضحكاً. أن نلعب فيما نحن عالقون بهذا الفخّ. الشرنقة. مهدّدون بالموت، أو بما هو أبشع من الموت.. ومع ذلك، فقد ترك فينا إحساساً غريباً بالراحة. أنا على الأقلّ. الالتماعات الخفيّة في العيون. الانفراجات في الشفاه، والتي تشبه الابتسامات. الارتخاء في عضلات الوجوه... ومع ذلك، لم نمتلك من الجرأة ما يكفي؛ لنهتف كالأطفال:

- فلنلعبها..

لم نقلها.. فالديدان لم تتخلّص من كامل خوفها بعد.. ما تزال تشمّ رائحة خطر، تملأ المكان..

- هنالك أمر آخر غريب. لمَ لمْ ننتبه إليه؟. شخصيّاً أراه أوّل مرّة.. أوّل مرّة أراه، مع أنّه موجود من قبل، بالتأكيد.. لا أدري.. لستُ مخطئاً.. انظروا إلى بعضكم..

وتبادلت الديدان النظرات..

وكان على حق..

أن نتشارك في اسمٍ واحد، الاسم واللقب معاً، فهذا مثير للدهشة. وللشك أيضاً. لكن؛ ماذا عن الملامح؟..

لمَ لم نلاحظ ذلك من قبل؟..

كيف لم ننتبه إلى أنّنا نسخٌ مكرّرة مع فوارق بسيطة، فرضها التفاوت في الأعمار، لا أكثر؟!..

وعندما نقول: نسخ، و: مكرّرة.. فإنّنا نعني ذلك تماماً، وحرفيّاً، ودون أن نبالي بالاتهامات القاسية المحتملة لنا بالكذب، أو المبالغة.. أو حتى الجنون..

لم نكن نكذب، أو نبالغ.. كما أنّنا لسنا مجانين.. نسخٌ مكرّرة، كما لو أنّنا توائم. ليس تماماً. ثمّة فوارق. فوارق في الأعمار.بين الواحد والآخر فارق عمرٍ، مقداره عشر سنوات. عشر سنوات، بالضبط. باليوم. وربّما الساعة!.. تأكّدنا من ذلك عندما تبادلنا المعلومات حول تاريخ ميلاد كلّ منّا..

كنتُ أكبرهم سنّاً. في الخمسين. وأصغرنا كان في العشرين..

لا شيء أكثر من ذلك..

وتوقّفنا عند هذا الحدّ..

حسناً فعلنا..

- يكفي..

قلناها في أنفسنا. لم نجرؤ على الاعتراف بالمزيد..

وكرّرناها:

- يكفي..

ثمّ أضفنا:

- لا نريد أن نصاب بلوثةٍ في عقولنا. لا نريد مزيداً من

الصدمات.. يكفي.. أمّا ما حدث قبل ذلك؛ فيمكن أن نحتال على عقولنا بشأنه.. يمكننا خداعها.. نقنعها بأنّ كلّ ما عرفناه كان مجرّد مصادفاتٍ غريبة. غريبة فقط.. مدهشة ومخيفة؟.. لا بأس.. لكنّها مصادفاتٌ في نهاية المطاف.. مستعدّون - تماماً - لتنازلٍ من هذا النوع، وبهذا الحجم. مستعدّون لتحمّل الألم كلّه الذي سيتسبّب لنا به. أن نتقبّل ما يحدث على غرابته وفوضاه وبُعده عن المعقول. يمكننا أن نسمّيه مصادفات. مصادفات لا تحدث عادةً. بل لا تحدث مطلقاً. ومع ذلك، فقد حدثت. هل بوسعنا قول شيءٍ آخر؟.. هذا أقصى ما يمكننا الإقرار به..

أكثر من هذا سيكون انتحاراً. قلنا في أنفسنا. سيكون تحدّياً غبياً لعقولنا. زجّاً بها في مواجهة، لا تستطيع تحمّل تبعاتها.. هزيمة أكيدة، ومذلّة..

عند هذا الحدّ، وكفى.. لن نسأل عن آبائنا، وأمّهاتنا، وإخوتنا، وأخواتنا، وزوجاتنا، وأولادنا، وأصدقائنا، والأماكن التي زرناها، وأنواع الأطعمة التي نفضّلها، والأعمال التي زاولناها، والنساء اللواتي مررنَ في حياتنا.. لن نسأل.. لن نسمح باكتشافاتٍ جديدةٍ، يمكن أن تُزلزل أرواحنا. أن تقضي على آخر ما بقي في رؤوسنا من صفاء.. نكتفي بما عرفناه، ونتحاشى الحديث في أيّ شيء آخر.. وإلّا سنكون قد اتّخذنا قراراً، بانتحارٍ جماعيّ مروّع..

نعود إلى ما كنّا فيه في اللحظات الأولى التي اكتشفنا فيها وجودنا في هذا المكان.. ما تلا ذلك، لن نفكّر فيه إطلاقاً.. سننساه..

أربعة أشخاص وجدوا أنفسهم - فجأةً - محاصرين، في مكانٍ مغلق، ويبحثون عن طريقةٍ للخروج.. هذا هو ملخّص الحكاية. جوهرها. حقيقتها البسيطة. فقط. فقط. وهي حكايةٌ مبتذلة تتكرّر مراراً، وفي أمكنةٍ مختلفة.

التفاصيل الأخرى سنتجاهلها. لا علاقة لنا بها. لا تعنينا أبداً. ليس مهمّاً أنّ المكان مغلقٌ تماماً.. كقبر.. بلا أبواب، ولا نوافذ، ولا أيّ فتحات. نتجاهل ذلك، كما لو أنّه إضافاتٌ تكميليّة، لا قيمة لها. والأشخاص. ليس مهمّاً أن نعرف مَن هم. ما أسماؤهم؟. ما أشكالهم؟. ما ماضي كلّ منهم؟. من أين جاؤوا؟.. أسئلة فضوليّة، قد تتسبّب في جنوننا عندما تتكشّف عن حقائق من النوع الذي تكشّف أمامنا حتى الآن.. وهذا آخر ما ينقصنا طبعاً..

قلنا أيضاً:

- ليس أمامنا سوى الانتظار. نترك لهم أن يبادروا. دورهم الآن. أن يُقدموا على الخطوة التالية. حينها - فقط - نفكّر بما يمكن فعله..

قلناها دون يقين في البداية.. كمَن يُعزّي نفسه بالوَهم.. يكذب عليها؛ لينجو بها..

كنّا بحاجةٍ - إذاً - إلى حدثٍ خاصّ جدّاً، يساعدنا على الانتقال بكلماتنا من مستوى الهذيان هذا إلى مستوى اليقين..

ولم يطل الأمر كثيراً..

ندين لأصغرنا (العشرينيّ) بهذا، فهو الذي اقترح علينا أن نحاول إحداث ثغرةٍ في الجدار. لم يكن يعني ذلك، بالضبط. لم يبدُ عليه أنّه كان جادّاً تماماً.. قالها كما لو أنّه يخاطب نفسه. لكنّنا تلقّفنا كلماته في كثيرٍ من الدهشة. أثارت الفكرة حماسنا، وقلنا:

- لمَ لا؟..

وجدنا مطرقةً صغيرةً. ومنشاراً. ومفكّاً. استعملنا السكاكين أيضاً. والملاعق. وكلّ ما استطعنا العثور عليه من الأدوات المعدنيّة..

ثمّ توقّفت محاولاتنا سريعاً.. شعلة حماسٍ توقّدت فجأة.. ثمّ انطفأت فجأةً..

لم نُكمل. نحن نفلح في الحديد..

- لا جدوى..

قلناها صراحةً.. بكامل إحباطنا.. وفجيعتنا.. وإحساسنا بعقم أحلامنا..

غير أنّ المعجزات تحدث أحياناً.. تأتي عندما تكون مستبعدةً تماماً، وخارج كلّ الحسابات.. في اللحظات غير المتوقّعة، ولا المنتظرة..

حسناً فعل العشريني باقتراحه هذا.. فخيبتنا في إحداث الثغرة في الجدار هي التي أنقذتنا.. لم نتمكن من إحداث أثر صغير في الجدار..

- جدران مصفّحة؟!!..

كان لا بدّ من الإقرار بالهزيمة..

هكذا.. بدأ الأمر على شكل قبضةٍ من الفولاذ تعتصر أرواحنا. كنّا نختنق. وصدورنا كانت تعلو وتهبط على إيقاع قلوبنا العنيف الصاخب والمتسارع كفرقةٍ من ضاربي الطبول..

كنّا بلا أمل..

لكنّ انعدام الأمل ذاته أصبح حبل النجاة الذي وجدناه، على غير توقّع، يتدلّى أمامنا. تمسكّت أرواحنا به. شعرنا به، وهو ينتشلنا من مستنقع آمالنا الكاذبة. يرتفع بنا إلى الأعلى. ثمّ يُطلقنا، وقد تحرّرنا تماماً..

- لا نريد آمالاً من هذا النوع.. الأمل يقتلنا..

كنّا نردّد ذلك، ونحن نتخذ أصعب قرارٍ، يمكن اتّخاذه في مثل هذه اللحظات. لقد بذلنا كلّ ما نستطيع. حسناً. يكفي هذا. ليحتفظ العشريني بأفكاره لنفسه. ونحن أيضاً. لا ضرورة لأن نشعل شرارة أمل دون أن نكون واثقين من أنّها ستضيء في النهاية. نريد لهذه الشرارة أن تضيء، لا أن تحرق. أرواحنا لم تعد تحتمل المزيد من الخيبات.

قلنا:

- لنتّفق على هذا..

وأضفنا:

- الانتظار.. فقط.. لا شيء آخر.. معجزة اليأس هذه هي ملاذنا الأخير..

أخذنا أنفاساً عميقة، أطفأنا بها آخر جمرة أمل.. وكدنا نبتسم..

وحده العشرينى بدا متردّداً.. حاول أن يقترح أشياء أخرى..

قال، وكأنّه يلقي خطاباً:

- ليس لدينا ما نخسره. الموتى، وهم موتى، لن يرضوا بعار الاستسلام. سيحاولون الخروج من قبورهم، لو أنّهم استيقظوا ليجدوا أنفسهم أحياء مرّةً أخرى.. يمزّقون أجسادهم، ويموتون ثانيةً، وهم يحاولون النجاة.. يموتون بشرفٍ على الأقلّ..

فأجبنا ببرود:

- لو....

لَكَمَ بيده الهواء.. وصرخ:

- لكنّ الانتظار صعبٌ أيضاً.. مَن منكم يعرف ماذا ينتظر بالضبط؟..
- ولماذا يجب أن نعرف؟.. ما الفائدة؟..

ولم يجد مفرّاً من الاستسلام أمام هذا اليأس كلّه الذي حاصرناه به.. الأغلب أنه لم يكن مقتنعاً بما قاله.. كان دوراً، وعليه أن يمثّله..

قال في لهجة مَن يعترف:

- ننتظر.. ونرى..

أحدنا، أظنّه الأربعيني، علّق:

- لدينا ما يكفينا كي نستمرّ في الحياة. طعام. شراب. هنالك بعض الأدوية. ملابس. منظّفات. كُتب. رأيث في تلك الخزانة، هناك، علبة شطرنج أيضاً.. إنّهم كرماء، إلى حدّ ما.. ليس مؤكّداً أنّهم يضمرون الشرّ تجاهنا.. لمَ افترضنا ذلك أصلاً؟..
- لا نريد أن نستبق الأحداث. هم يضمرون شيئاً.. قد لا يكون شرّاً.. وقد يكون أيضاً.. لا ننفي، ولا نثبت.. نتساءل فقط.. وهذا حقّ لنا..

قلتُ..

- سنعرف في ما بعد..

علّق الأربعيني، باختصار..

أقلقتنا قليلاً عبارة (في ما بعد) هذه؛ لأنّها مفتوحة على الزمن. لها نهاية حتماً. ولكن؛ مَن يدري متى؟.. هذه مشكلة، بحدّ ذاتها..

قلنا:

- دعونا نحسبها.. دعونا نبدأ من الطعام..

ألقينا نظرةً على ما لدينا. قدّرنا أنّه يكفي أربعة أشخاص بالغين للاستمرار في الحياة طيلة عشرين يوماً تقريباً، وليس أسبوعين، كما ظننّا في البداية. ولكن؛ مع قليلٍ من التقتير، أو حسن التدبير في الأقلّ، يمكن أن تطول الفترة إلى شهر..

أصبحنا على يقين - تقريباً - من أنّهم لا ينوون احتجازنا أطول من ذلك. لقد زوّدونا بالمؤونة التي تكفينا هذا الوقت بالتحديد.. ورغم أنّ شهراً من الاحتجاز ليس سهلاً، خصوصاً في هذه الأجواء الضاغطة الغريبة، فقد اتّفقنا على أن نتحمّل ذلك. أن نتقبّله مهما كان الثمن.

شعرنا أنّنا قمنا بإنجازٍ كبير. نحن ما نزال في اليوم الأوّل، ومع ذلك، فقد تخطّينا مرحلة الصدمة. تخطّيناها سريعاً جدّاً. بأسرع ممّا تصوّرنا. وبأقلّ ما يمكن من

الخسائر. خلال ساعات. تغلّبنا على أنفسنا. على خوفنا. وارتباكنا. وانهيار أعصابنا. وجنوننا. وأوهامنا أيضاً.. رمينا كلّ شيء وراء ظهورنا، ولم نعد ننظر إلّا إلى الأمام.

كانت تجربةً عظيمةً ومميّزة، لم يسبق أن عشناها من قبل. أنا على الأقلّ..

اقترحتُ أن نحتفل بالمناسبة.

قلتُ:

- نستحقّ ذلك..

كان اقتراحاً غريباً، ومع ذلك، فقد أخذنا به. دون حماس، في بادئ الأمر. ثمّ سرعان ما أدركنا أنّها الخطوة الأجمل التي يمكن أن نقوم بها.

أعددنا أطباقاً بسيطةً من الطعام. وجدنا صندوقاً، فيه عشر زجاجات نبيذ. من النوع الذي نحبّه..

- مصادفة سعيدة أنّنا نحبّ نوعاً واحداً من النبيذ!!..

مصادفة.. الكلمة السّحريّة التي أحببناها. برّ الأمان الذي نلجأ إليه عوضاً عن الغَرَق في أمواجٍ من الشك والحيرة..

فتحنا إحدى الزجاجات. استمعنا إلى بعض الأغاني. وهزَزْنا رؤوسنا طرباً. وتبادلنا بعض النكات..

الكمين

لم نتم جيداً. أنا على الأقل. رأيتُ الكثير من الأحلام المزعجة. نهضتُ عن فراشي ثلاث مرّات. دخلتُ الحمّام. وتقيأتُ..

مع ذلك، لم أكن مرهقاً في الصباح. وباستثناء صداعٍ خفيف استمرّ ساعةً تقريباً، ثمّ زال تماماً، يمكن القول إنّني كنتُ على قدرٍ كافٍ من الحيويّة.

كان الثلاثيني قد سبقنا في الاستيقاظ. كان يدخّن. وجد سجائر أخيراً. عثر عليها في صندوقٍ تحت أحد الأسرّة، كما فهمنا. أمس أمضينا وقتاً طويلاً نفتّش عن السجائر. كنّا جميعاً من المدخّنين. تضايقنا بادئ الأمر.. تساءلنا:

- كيف نعيش شهراً كاملاً دون تدخين؟!!..

وعندما فقدنا الأمل، قلنا:

- لا بأس.. فرصة لنقلع عن هذه العادة..

قلناها ببرود. بلهجة المضطرّ الذي لا خيار آخر أمامه.. أمّا في قرارة أنفسنا فكنّا نلعن، ونشتم..

انضممنا إلى الثلاثيني. أحاديث مقتضبة تبادلناها حول عدم وجود مرآةٍ في الحمّام.

- ليس في الحمّام فقط.. لا توجد مرآةٌ في المكان كلّه..!!

وتحدّثنا حول الكُتب على الرفّ.. روايات ودواوين شعر وكُتب في الاقتصاد والرياضة والموسيقى وفنّ تنسيق الحدائق. هنالك كتاب في علم نفس المراهقين.. ولا شيء آخر..

تحدّثنا كذلك عن المخدّات. قال الأربعيني:

- قاسية..

علّق العشريني في نوعٍ من المرح، بدا معه وكأنّه تخلّص نهائياً من أثر نوبة الحماس التي تملّكته أمس:

- بل طريّة أكثر ممّا ينبغي..

وابتسم..

خلال ذلك، ظلّت عيني على الثلاثيني. كان لديّ إحساس أنّ لديه شيئاً يريد أن يقوله.. حركاته. نظراتُ عينيه. يداه اللتان ظلّ يفركهما طيلة الوقت..

ولم يخيّب ظنّي. قال مستغلّاً لحظة صمت طارئة:

- هنالك أمر ينبغي أن نعرفه..

التفتنا إليه..

أطلق سعلةً خفيفة.. ثمّ تابع:

- أمس اتّفقنا على أشياء. كان إنجازاً فرحنا به. لا أريد - طبعاً - أن أفسد عليكم طمأنينتكم. لكنْ؛ لفت انتباهي هذا الصباح شيءٌ، يدعو إلى الشكّ..

بدا متردّداً.. لكنّه تابع:

- أظنّ أنّنا مضطرّون لمراجعة بعض ما اتّفقنا عليه..
- الشك مرّةً أخرى؟.. ونراجع ما اتّفقنا عليه؟.. طبعاً لا..

رفع الأربعيني صوته محتجّاً.. كان حاسماً وحادّاً.. ثمّ أضاف:

- أيّاً كان ما لديكَ، فنحن لا نهرّج.. ما الذي تظنّه؟.. لسنا في موقفٍ، يسمح لنا بترف تغيير آرائنا كلَّ نصف ساعة..
- نعم.. لكنّه أمر طارئ.. ليس من صالحنا أن نتجاهله..

توقّفت قلوبنا. الأربعيني ابتلع ريقه. بدا مصدوماً. لكنه تمالك نفسه سريعاً:

- لا يعنينا ذلك. لا نريد أن نعرف شيئاً..

سحب آخر نَفَس من سيجارته، وأدار عقبها في قعر المنفضة بعنفٍ بالغ. ثمّ نهض على قدميه. رأينا وجهه، وقد اكتسى بملامح شديدة الجدّية. بدا كمَن يستعد للقتال:

- اسمع.. نحن جميعاً نعلم أنّ الموقف أكبر من أن تتحمّله عقولنا. ما جرى - حتّى الآن - كان من شأنه أن يصيبنا بما هو أكثر من الجنون. كان ينبغي أن يدفعنا إلى أن نقتل بعضنا، أو نقتل أنفسنا.. لكنّنا لم نفعل. استوعبناه. تفوّقنا على أنفسنا، واستوعبناه. تذكرون. قمنا بمعجزة. إلى درجة أنّنا احتفلنا أمس.. شربنا خمراً، وغنّينا، وضحكنا.. مَن يفعل هذا في مثل ما نحن فيه؟..

صمت قليلاً.. ثمّ تابع:

- والآن.. هل بينكم مَن يعتقد أنّ الحكاية توقّفت عند هذا الحدّ؟.. سيكون غبيّاً - بالتأكيد - لو خطر في ذهنه مثل هذا. توقّعوا الكثير، أيّها الأصدقاء. توقّعوا الكثير. أعلم أنّكم تفكّرون بطريقتي نفسها. لكنّني أقولها لكم، بصوت عالٍ. وبلغةٍ، قد تجرحكم درجة وضوحها وصراحتها.. الأمر الذي يتحدّث صديقنا الثلاثينيّ عنه - الآن - لن يكون أغرب ممّا مرّ بنا.. أؤكّد لكم أنّنا سنرى المزيد كلّ يوم، بل كلّ ساعة.. هَيّئوا أنفسكم لمفاجآتٍ صاعقة. لا تسألوني ما هي؛ لأنّني لا أعرف عنها شيئاً.. كلّ ما في الأمر أنّ الكثير منها في انتظارنا..

كانت أعضاء أجسادنا تختلج.. ولم ندر.. أ هو الخوف؟ أم الصقيع؟..

- حسناً.. فإذا أردنا أن نتتبّع ما سيحدث أوّلاً بأوّل، وتفصيلاً بتفصيل، ونتكلّم فيه، ونغيّر في كلّ مرّة ما اتّفقنا عليه من قبل، فسنكون - عندئذٍ - قد حكمنا

على أنفسنا بالموت. بأبشع طرق الموت، وأشكاله. وبصراحة، أنا لا أريد أن أموت هكذا. أتكلّم عن نفسي. ليس الآن.. ما يزال الوقت مبكّراً للبحث في خيار الموت الصعب هذا..

صمت ثانيةً.. ثمّ تابع في لهجةٍ أقلّ حدةً.. لاحظنا نبرات صوته المرتجفة:

- نحن نرمي بأنفسنا في دوّامةٍ من الرعب.. لا ندري كيف حدث هذا.. لكنّه حدث، كما سبق أن قلنا.. وهذا يكفيني. بالنسبة لي، فليس لديّ استعدادٌ لمعرفة المزيد.. لا أريد.. ما عرفته يكفيني.. أمامي شهر، أقاوم فيه جنوني.. وسأتحمّله.. لديّ حياتي الطبيعيّة، ويجب ألّا أخسرها. وإذا كان لا بدّ من بعض الخسارات، فلتكن في أشياء أخرى.. ولتكن في الحدود الدنيا الممكنة..
- المشكلة هنا، يا صديقي.. أظنّ أنّنا كنّا مخطئين في تقديراتنا..
- تعني الشهر؟. هل تخشى أن يطول الأمر أكثر من ذلك؟. لا بأس. نسايرك في هذه، مع أنّنا حسبناها جيّداً أمس. نقتصد في استهلاكنا أكثر. ليس صعباً. سنحاول. ما الذي يمنع؟.. خبز أقلّ. شاي أقلّ. صابون أقلّ. وهواء وماء أقلّ، إذا أردت.. قلْ هذا ببساطة، دون أن تزجّ بنا في هذه المتاهة السخيفة التي نلاحق فيها أوهاماً..

وأطلق ضحكةً صغيرةً فيها الكثير من السخرية.. والمرارة..

كنّا نستمع إلى الحوار. أنا والعشريني.. بالنسبة لي، فقد كنتُ متعاطفاً - في الحقيقة - مع الأربعيني، وإن استبدّ بي فضولٌ خفيّ لمعرفة ما يريد الثلاثينيّ قوله بالضبط.. بدا لي أنّه لا يتكلّم عبثاً..

- ومع ذلك سأقول ما لديّ.. سأقوله مع أنّكم ستعرفونه بأنفسكم.. اليوم ستعرفونه.. بعد لحظات ربّما..

عند هذه النقطة، وجدتُ نفسي مضطرّاً للتدخّل:

- نهدأ قليلاً.. أعتقد أنّ صديقنا الأربعينيّ محقّ في ما قاله.. ليس من مصلحتنا أن نغامر بهذه الحالة التي وصلنا إليها.. تذكرون كم عانينا، إلى أن وصلنا إليها.. حالة الاسترخاء.. أن نتحدّى أنفسنا.. نتفوّق عليها.. أن نأكل، ونشرب، وننام، ونضحك أحياناً رغم أنّنا نعيش ظرفاً، لا نعرف كيف نصفه.. لا ندري أيّ مفردة يمكن أن تختصر بشاعته.. لا نريد أن نفرّط بهذا كلّه.. قلنا أمس إنّنا لن نسمح لأنفسنا بالتورّط في حقائق، يمكن أن تُبلبل أرواحنا من جديد.. لماذا علينا أن نلاحقها، إذا كنّا نعرف أنّها ستقضي علينا؟..

كان الأربعيني يتابعني في كثيرٍ من الاهتمام والترقّب.. ثمّ سرعان ما بدت على وجهه ملامح الامتعاض والخيبة.. شعر أنّني أخذله، وأنا أضيف:

- لكنّنا قلنا - أيضاً - إنّنا يجب أن نثق ببعضنا.. هل تحدّثنا في هذا؟.. إن لم نكن قد فعلنا، فلأنّه - بالتأكيد - أمرٌ مسلّم به، لا يحتاج إلى أن نعبّر عنه بالكلمات.. الثقة.. أ ليس كذلك؟. نتبادلها؛ لأنّنا بحاجةٍ إليها. ليس أمامنا خيار آخر.. ولأنّنا نثق ببعضنا، لا أرى مانعاً من أن نستمع إلى صديقنا. نمنحه الفرصة.. ولنا - بعد ذلك - أن ننسى كلَّ ما سيقوله.. لقد نجحنا من قبل في مثل هذا..

لم يمنحني الثلاثيني الفرصة؛ لأكمل.. قطع الطريق عليّ، وعلى الأربعينيّ قبل أن يحتجّ:

- نحن نضيّع وقتنا.. لا جدوى من هذا الجَدَل كلّه.. اسمعوني..

كان مصرّاً على قول ما يريد.. لم يبدُ عليه أنّه يقيم لآرائنا في هذه اللحظة أدنى وزن، سواء كنّا معه أو ضدّه.. لم يكن مبالياً على الإطلاق..

- تناولنا أمس طعاماً وشراباً.. استهلكنا بعض الخبز واللبن والبيض والمعلّبات.. وزجاجة نبيذ واحدة.. ما رأيكم لو قلتُ لكم إنّ كلّ ما استهلكناه عاد إلى مكانه؟..

ثمّ تساءل في لهجة مَن يريد أن يعبر عن مخاوف، تعصف به أكثر ممّا لو كان يطلب جواباً:

- ماذا تفهمون من ذلك؟..

ونسينا ما قلناه كلّه عن الهدوء، وعواقب الانجرار وراء أيّ أمر، يمكن أن يثير دهشتنا وفضولنا. وجدنا أنفسنا نندفع، في ما يشبه الغياب الكلّي للوعي؛ لنفتح الخزائن، ونغلقها. الأدراج. الصناديق. ننظر هنا وهناك. نحصي كلّ شيء.. البيض.. النبيذ.. الخضار.. الفاكهة.. المعلّبات..

كانت الكمّية كما وجدناها قبل أن تمتدّ أيادينا إليها.. كلّ ما استهلكناه تمّ تعويضنا عنه..!!

قال العشريني:

- القمامة أيضاً.. رحّلوها عن المكان..
- ونظّفوا بقعة النبيذ على الأريكة..

أضفتُ..

- ومن المؤكّد أنّ السجائر جيء بها حديثاً.. لقد فتّشنا كلّ مكان أمس.. أنا نفسي نظرتُ تحت الأسرّة..

أضاف العشريني..

الدوّامة ثانيةً.. الأسئلة، وهي تتدلّى على شكل حبال، لا لتنتشلّنا هذه المرّة، بل لتلتفّ حول أعناقنا.. حقل الألغام الذي علقنا فيه على التخوم.. قريباً من الحقيقة.. قريباً من الوَهم.. دون أن نعرف في أيّ اتجاه، يقع كلّ

منهما..

والآن..

هل نفرح؛ لأننا لن نموت جوعاً، باعتبار أنّ ثقة مَن سيكون جاهزاً - على الدوام - ليمدّنا بالمؤونة، كلّما استهلكنا شيئاً منها؟..

خبر جيّد.. لنبتهج إذاً..

لقد نجونا من قبلُ من خطر الموت اختناقاً.. وها نحن ننجو - الآن - من خطر الموت جوعاً، فيما لو استمر احتجازنا زمناً أطول ممّا قدّرنا.. إذا صحّت كلمة (احتجاز) طبعاً.. بقي - فقط - خطر الموت قلقاً وترقّباً..

ولكنْ ... ما الذي يعنيه هذا أيضاً؟..

الثلاثيني كان مرتبكاً.. لديه هواجس من نوعٍ ما.. وهو محقّ فيها بكلّ تأكيد..

الشهر الذي قدّرناه حدّاً أقصى (لاحتجازنا) لم يعد شهراً.. تحوّل إلى وقتٍ مفتوح.. إذا كان قبرنا بلا أبوابٍ، ولا نوافذ، فمستقبلنا - الآن - بلا جدرانٍ، ولا سقف.. بلا علاماتٍ على الطريق.. بلا طريقٍ أصلاً..

خطر لنا - بالطبع - أن نتساءل عن الطريقة التي يتمّ فيها تعويض النقص في المؤونة، أو ترحيل القمامة، أو تنظيف الأرائك من بقع النبيذ.. خطر لنا أن نتناوب على مراقبة المكان ليلاً.. أن يسهر أحدنا ليرى إن كان ثقة شخصٌ يتسلّل في أثناء نومنا؛ ليقوم بذلك كله..

وكدنا نفعلها..

التحصينات التي أقمناها كانت على وشك الانهيار. بشريّتنا الضعيفة كانت تهمس في آذاننا:

- لا تُفوِّتوا الفرصة.. راقبُوهم.. انصبُوا كمائنَ لهم، وألقوا القبض عليهم بالجرم المشهود.. فرصتُكم التي لا تُعوَّض.. افعلُوها..

وكدنا نفعلُها حقاً..

لكنّنا تداركنا أنفسنا في اللحظة الأخيرة..

قلنا:

- لسنا أغبياء.. لسنا أغبياء أبداً..

وبكلّ ثقة بالنفس، تابعنا:

- لن نكرّر أخطاءنا الفادحة السابقة في البحث عن تفسيراتٍ لأشياء، لا تقبل التفسير. كانت لنا تجارب مشابهةٌ من قبل، ثمّ تيقّنّا أنّنا نبدّد طاقتنا في غير طائل.. نحن نلاحق هلاكنا فقط.. لنختصر الطريق إذاً.. كفانا خيبات.. ولنتقبّل الحقيقة الجديدة على مرارتها، كما تقبّلنا الحقائق الأخرى.. نتعامل معها على أنّها حَدَثٌ طبيعيّ.. كما لو أنّ طفلاً - على سبيل المثال - سقط في حفرةٍ وسط الشارع.. هل من الضروريّ أن نشغل أنفسنا بالبحث عمّن حفرها؟.. ومتى؟.. وكيف؟.. والأدوات التي استعملها؟.. والغرض من ذلك؟.. لنكن واقعيّين. ما ينبغي أن نصرف إليه اهتمامنا في تلك اللحظة هو إنقاذ الضحيّة فقط.. أمّا ما عدا ذلك فتفاصيل، لها وقتها..

وقلنا:

- نحن ضحايا، وليس ثمّة مَن يمكن أن يُنقذنا.. فلمَ لا نتولّى المهمّة بأنفسنا؟.. نُنقذ أرواحنا بأيدينا.. نُنقذها قبل أن تتحطّم، أو تحترق، أو تغرق، أو تتمزّق.. لن ننصب الكمائن لأحد.. أبداً.. ربّما كانوا يستجرّوننا لمثل هذه الحماقة.. ربّما كان الكمين منصوباً لنا. للإيقاع بنا... دورنا أن نحرمهم من متعة الوصول بنا إلى لحظة الانهيار.

أ لم نقل إنّها لعبة؟..

حان الوقت الآن.. فلنلعبها..

طوينا الصفحة. انتصارٌ جديد. واحتفلنا أيضاً، ولكنْ؛ ببذخٍ أكبر هذه المرّة. لم نقلق بخصوص المؤونة. استهلكنا الكثير من كلّ شيء.. ودارت عقولنا نشوةً واشتهاءً..

الفصل الثاني

جلسنا أنا والخمسيني نتناول القهوة.

هل أخطأتُ؟.

لا.. لا بدّ أن أذكر هذا. لقد تغير اسمي. لم أعد خمسينياً. الخمسيني - الآن - شخص آخر هو الأربعيني. تنازلتُ عن اسمي القديم له. فيما تنازل هو الآخر عن اسمه للثلاثيني، الذي تنازل - بدوره - عن اسمه للعشريني.. ثمّ طرحنا للتداول اسماً جديداً. السّتيني. اسمي..

أمّا العشريني؛ فلم يعد له أيّ وجود.. لم يعد بيننا مَن نناديه بهذا الاسم..

بهذه البساطة..

كنّا مضطرّين، فالأعمار الجديدة تتطلّب أسماءً جديدةً أيضاً.. تحدّثنا في الأمر مطوّلاً، وناقشناه من مختلف جوانبه. إيجابيّاته وسلبيّاته. ورأينا - أخيراً - أنّه من غير المنطقيّ أن نُطلق على أنفسنا أسماءً، تدلّ على أعمارٍ أصغر ممّا نحن عليه.. على مَن نكذب؟.. وبمَ يمكن أن يفيدنا ذلك؟.. لنخرج من أوهامنا. لنكن واعين ومتيقّظين. فعلنا ذلك من قبل. وسنفعلها هذه المرّة أيضاً..

تغيير أسمائنا - إذاً - ضرورةٌ، فرضها علينا واقعٌ استثنائي، وكان لا بدّ من التعامل مع هذا الواقع، مهما بدت النتائج مُربكةً ومُحيّرة..

وحقّاً.. فقد عانينا كثيراً، إلى أن اعتدنا هذا التعديل الطارئ. كنّا نخطئ أحياناً، ونخلط، ونُسيء فَهم بعضنا نتيجةً لذلك.. نخاطب الثلاثيني، فيردّ الأربعيني. أو العشريني، فلا يردّ أحد.. فوضى أسماء، جعلتنا عاجزين عن تسيير أبسط شؤون حياتنا اليوميّة، ما دفعنا إلى التفكير جاذين في إعادة النظر بالأمر كلّه..

- نعود إلى أسمائنا القديمة..
- عشرينيّ في سنّ الثلاثين، أو ثلاثينيّ في سنّ

الأربعين؟!!.. ليس معقولاً..

- وليس معقولاً - كذلك - أن نحتمل هذه الفوضى إلى الأبد..
- نمهل أنفسنا شهراً واحداً.. ثمّ نقرّر..

ولم نحتج إلى أكثر من أسبوعين. تكيّفنا مع الحالة الجديدة، وبمرور الشهر، أصبحت مشكلة الأسماء جزءاً من الماضي، نتذكّرها، ونسخر منها، ومن المواقف السخيفة التي عشناها معها..

***

كنّا نتناول قهوتنا. نوعٌ جديد من البنّ زوّدونا به. أعددتُ فنجانين منه. لي وللخمسيني (الأربعيني سابقاً)، فيما الآخران ما يزالان نائمين..

- ليس لذيذاً.. بنّ رديء..

قال..

وعقبتُ على ملاحظته:

- نعم.. النوع القديم كان أفضل..

ثمّ أضفتُ:

- نكتب لهم بهذا الخصوص.. البنّ بالذات.. إمّا أن يكون جيّداً، أو لا يكون..
- لن ينفع.. لن يردّوا..
- سأطلب من الثلاثينيّ اليوم أن يكتب لهم.. نجرّب..
- لن يستجيبوا.. أؤكّد لك..

كتابة الطلبات.. كانت هذه إحدى مسؤوليّات الثلاثيني. أن يتولّى كتابة طلباتنا، أو مقترحاتنا، أو شكاوانا على أوراق، ويضعها ليلاً على رفّ الكتُب.

هذه الطريقة في التواصل اكتشفناها مصادفةً. اكتشفها الثلاثيني، بالذات. منذ كان اسمه (العشريني). كان - يومها - يعاني من نوبة مغص كلويّ، لم تخفّف من

حدّتها المسكّنات العاديّة في الصيدليّة الصغيرة التي نملكها. أخبرنا - في ما بعد - أنّه بينما نحن مستغرقون في النوم ليلاً، كان هو يتلوّى ألماً. وفي لحظة يأس، لمعت الفكرة في ذهنه. كتب ورقةً يهدّد فيها بالانتحار، إن لم يفعلوا شيئاً. الأغلب أنّه لم يكن جادّاً في تهديده، لكنْ؛ ما العمل، إذا كان الألم لا يطاق؟!..

السيّدات والسادة.. خاطبهم هكذا. دون أن يعرف مَن هم. ودون أن يكون واثقاً من أنّ محاولته ستثمر. نوعٌ من الإلهام ربّما. ثمّ تركها على رفّ الكُتُب قريباً من طاولة التلفزيون.

في الصباح، وجدنا كيساً، فيه الأدوية المطلوبة..

***

منذ ذلك الحين، ونحن نكتب لهم كلّما احتجنا إلى شيء. وكانوا يلبّون طلباتنا في كرمٍ، لا يمكن إنكاره.. نقولها بكلّ أمانة.. ليست الطلبات جميعها، بل معظمها، إذا أردنا الدقّة، لكنّنا كنّا راضين مع ذلك، وتقبّلنا الأمر في كثيرٍ من الامتنان..

وكنّا نقول عندما لا نجد استجابة لهذا الطلب، أو ذاك:

- لديهم أسبابهم..

وكنّا نعني أنّهم ليسوا مضطرّين أصلاً إلى مسايرتنا في شيء. لنكن واقعيّين. ومع هذا، فقد تعاملوا معنا بهذا الكرم كلّه. قد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلتنا نراجع موقفنا العدوانيّ المتشنّج تجاههم، أو على الأقلّ، نخفّف منه. كان علينا أن نلتقط الإشارات الإيجابيّة التي يُرسلونها من وقتٍ لآخر، ونبني عليها. أمّا تجاهلهم لبعض طلباتنا؛ فقد كان مفهوماً، وإذا أردنا الصراحة، فقد كنّا نبالغ - أحياناً - في هذه الطلبات..

كرمهم كان واضحاً جدّاً.. لم يُصلحوا لنا الهاتف رغم طلباتنا المتكرّرة، وهو أمر متوقّع نظراً لحساسيّة الأمر.. لكنّهم - بالمقابل - أصلحوا لنا التلفزيون. اقتصر البثّ على

قناةٍ واحدةٍ، عرفنا - في ما بعد - أنّها داخليّة لعرض الأغاني، وبعض برامج المنوّعات القديمة فقط. وفي وقتٍ لاحقٍ، افتتحوا قناةً أخرى للبرامج الخاصّة بالطبيعة والحيوان..

قلنا لهم:

- نريد شموعاً؛ لنحتفل بأعياد ميلادنا..
- وصحوناً إضافيّةً للسجائر..
- ومكنسةً كهربائيّة..
- وماءً حارّاً على مدار الساعة..
- والمزيد من الخمر..

أرسلوا لنا الكثير من هذه الأشياء.. وأرسلوا لنا أشياء أخرى، لم نطلبها.. عطوراً. نظّارات شمسيّة. تماثيل لنساء عاريات. مساحيق مجهولة في علبٍ صغيرة. وكنا نتلقى منهم - أيضاً - إعلانات لمطاعم ومنتجعات ومحلّات مجوهرات، في مدنٍ، لم نسمع بها يوماً.كما عرضوا لنا في التلفزيون فيلماً عن العالم في الألفيّة الرابعة وظروف حياة البشر في عوالمهم الجديدة بعيداً عن الأرض..

ما لم يلبّوه من طلباتنا كان كثيراً أيضاً. لكنّنا لم نغضب. قدّرنا أنّها فوق إمكاناتهم. أو أنّها لا تتّفق مع إحدى سياساتهم التي لا نعرف عنها شيئاً..

بقي - فقط - ما يتعلّق بالمرايا.. ألححنا كثيراً في طلبها. لا نفهم حتى الآن لماذا يرفضون تزويدنا بأيّ مرآة!!..

قلنا لهم:

- نحتاجها لحلاقة ذقوننا على الأقلّ..

لكنّهم لم يردّوا..

عانينا كثيراً، ونزفنا دماءً غزيرة، ونحن نمرّر شفرات الحلاقة على وجوهنا، كما لو أنّنا عُميٌ..

تساءلنا:

- أ هو إجراء أمنيّ مثلاً؟..

ولم نجد جواباً مقنعاً إلى الآن.. ظلّت الحكاية لغزاً محيّراً..

- لا بأس.. قد تكون لهم حساباتهم الخاصّة..

لكنّنا لم نشأ أن نيأس..

- لنكرّر الطلب..

كرّرنا، ولم يستجيبوا.. ثمّ كرّرنا، ولم يستجيبوا.. وما نزال نكرّر، وما يزالون لا يستجيبون..!!

كانوا يهتمّون على نحوٍ خاصّ بالطعام والشراب والدواء، وإلى حدّ ما.. باللباس.. يزوّدوننا بكمّيّاتٍ وافرةٍ منها.. وكانت تفيض عن الحاجة أحياناً..

يهتمّون كذلك، بدرجةٍ أقلّ طبعاً، بنباتات الزينة. نتلقّى منهم بين الحين والآخر باقات ورود. صبّيرات. بعض الشجيرات الصغيرة. وكنّا نفرح بها. نداريها. ونعتني بها. لكنّها كانت تموت سريعاً.

حاولنا أن نحصل على حيوانٍ أليف.. على كلبٍ مثلاً..

قلنا:

- يسلّينا في أوقات فراغنا.. ونطعمه بقايا طعامنا عوضاً عن أن نرميها في القمامة..

ولم نفلح..

- لا يريدون أن يوقظنا نباح الكلب، وهم يدخلون ويخرجون ليلاً..

- ربّما..

ولم نفكّر - يوماً - أن نعترض، أو نحتجّ. حادثة التهديد بالانتحار لم تتكرّر.

قلنا للعشرينيّ (الذي يُسمّى - الآن - الثلاثينيّ):

- نطلب ما نريد، ولكن؛ بلطف. لا ضرورة للتشنّج والتوتّر. نحن لا نتحدّى أحداً..

***

ولم تخلُ حياتنا من بعض المفاجآت المبهجة..

حدث مرّةً أن استيقظنا، فوجدنا مساحة الغرفة قد اتّسعت. تضاعفت المساحة أكثر من عشر مرّات. وكان في الوسط حوضٌ للسباحة!!..

عندما نفكّر في الأمر نستغرب كيف لم تعقد الدهشة ألسنتنا في ذلك الموقف!!.. نستغرب كيف وقفنا نتأمّل المشهد بكلّ ذلك القدر من البرود!!.. ونستغرب أكثر كيف ارتدينا ملابس السباحة دون تفكير، وقفزنا في الماء كالأطفال!!..

سألنا أنفسنا، بالطبع، لكنه ظلّ سؤالاً عابراً سريعاً، مرّ كلمح البصر.. وكانت إجابته جاهزة:

- جدران متحرّكة.. ما الغريب في هذا؟..

وأمضينا اليوم كلّه في الماء، أو ممدّدين على أسرّتنا، بعد أن نقلناها قريباً من حافّة الحوض، تحت الأضواء القويّة المسلّطة على أجسادنا من أعلى السقف كمجموعةٍ من الشموس الاصطناعيّة..

قلنا:

- لا بدّ من الاحتياط..

ودهنّا أجسادنا بالزيت الواقي.. وارتدينا نظّاراتنا السوداء..

- هذا أفضل.. الحَذَر واجب..

سمّيناه (يوم المسبح)، وصرنا نؤرّخ به: حدث كذا قبل يوم المسبح، وكذا بعده.. وهكذا..

***

وبالمقابل، فقد تعرّضنا لبعض التجارب السيّئة. لكنّها -

للأمانة - كانت قليلةً. بضع مرّاتٍ فقط..

***

اختفت أصواتنا - فجأةً - في أحد الصباحات. هذه التجربة بالذات، لا يمكن أن ننساها. حدث هذا بعد يوم المسبح ببضعة شهور. هكذا. استيقظنا، ونحن لا نتكلّم. لا شيء يخرج من حناجرنا سوى الهواء. هواء ساخن. حتى البكاء كان بلا صوت. نعم.. بكينا أيّاماً. وشعرنا أنّنا وصلنا إلى حافّة اليأس..

أصواتنا..

- كيف نعيش بلا أصوات؟..

لكنّنا حاولنا مع ذلك..

استطعنا - بصعوبةٍ بالغة - أن نفهم بعضنا..

بطريقةٍ ما، استعنّا فيها بأيدينا وملامح وجوهنا وعيوننا وجوارحنا جميعها، تمكّنّا من الوصول إلى اتّفاقٍ، على ضرورة أن نضبط أعصابنا.. لا مبرّر للفزع..

- لسنا أولاداً لننهار..

عُدنا إلى دليل الإسعافات الأوّليّة الذي زوّدونا بنسخةٍ منه بعد نوبة المغص الكلويّ التي ألمّت بالعشرينيّ. قرأنا فيه عن المغص، والكسور، والإغماءات المفاجئة، ورعاف الأنف، ورمد العيون، والتهاب القولون، والقرحات المعديّة، وألم الأسنان، والجلطات القلبيّة، والزحار، والصرع، وتشقّع الكبد، والوذمة الرئويّة، وإصاباتٍ تافهةٍ أخرى كثيرة.. ولا شيء عن الأصوات عندما تختفي..

- غريب!!..

- لنجتهد، إذاً. لنعتمد على أنفسنا..

كان لا بدّ من ذلك. جرّبنا الغرغرة بالعسل محلولاً بماءٍ دافئ. أجرينا تدليكاً ناعماً لحناجرنا بأطراف الأصابع.. وقبل النوم، كنّا نحرص على أن نلفّ أعناقنا بخرقٍ من القماش الصوفي السميك؛ لنحمي حناجرنا من البرد الذي

خفتنا أنه وراء المشكلة، وقد يفاقمها.. كرّرنا العملية عشرات المرّات.. وانتظرنا..

وعلى مدى شهرٍ كاملٍ، كنّا نخاطبهم بالأمر. يومياً كنّا نخاطبهم. أخبرناهم أنّنا نعاني مرضاً غريباً، أتلف أصواتنا، ونحتاج إلى علاج. لكنّهم لم يردّوا.. وفي النهاية، اقتنعنا بأنّنا لن نشفى. رضينا بالأمر الواقع، وكففنا عن توجيه أيّ رسائل..

تملّكنا الحزن. وبدأنا نعيش عزلةً إضافيّة..

لكنّنا سرعان ما أدركنا أنّ الحياة على هذا النحو ستكون قاسيةً إلى حدّ، قد لا نتحمّله..

- ما الذي يجبرنا على ذلك؟..

سألنا أنفسنا، وأخذنا نبحث عن طريقةٍ، نتكيّف فيها مع الوضع الجديد..

كنّا - إلى هذه اللحظة - نتفاهم بالإشارة. حركاتٌ بدائيّةٌ بسيطة، لا تفي بالغرض، وكثيراً ما أسأنا فَهمها، والتبس علينا أمرها.. لكنّنا كنّا مضطرّين.. ما من خيارٍ آخر..

والواقع أنّ البداية كانت من هنا..

فكّرنا:

- لغة إشارت بسيطة.كلغة حيوانات الغابة. لكنّنا لسنا حيوانات. نستطيع أن نفعل شيئاً. نستطيع أن نبدأ من هذه النقطة، كما فعل أسلافنا البدائيّون.. دعونا نحاول..

وانصرفنا إلى عملنا.. اشتغلنا على لغتنا في جوٍّ من الحماس، وصل إلى حدّ الهَوَس. جهود خارقة، بذلناها حتى تحوّلت إلى لغةٍ كاملةٍ بأبجديّةٍ خاصّة، وقواعد، ونحوٍ، وصرفٍ، وإيقاع.. أنجزنا الأمر في وقتٍ قياسيّ، وببراعةٍ أدهشتنا.. نجاح لم يخطر في أذهاننا - إطلاقاً - أن نكون قادرين على تحقيقه، إلى هذه الدرجة من

الكمال..

أصبح بإمكاننا أن ننادي بعضنا دون صوت. وأن نقول مثلاً:

- نفرح، ونحزن، ونشتاق، ونريد، ونشتهي، ونسافر، ونعود، ونسافر ثانيةً. ونأكل. ونشرب. ونسافر. ونتعب. ونرتاح..

نمارس لعبتنا المفضّلة في اختبار الذاكرة:

- الكائنات التي كنّا نراها على الأشجار، تقفز من غصنٍ إلى آخر، وتصدر صوتاً عذباً.. تذكرونها.. ماذا كنّا نسقيها؟..

ونجيب:

- عصافير..
- وهذا النسيج الأزرق الناعم فوق رؤوسنا؟..
- سماء..
- والأماكن المزدحمة حيث كنّا نشتري، أو نتسكّع، أو نلاحق النساء؟..
- أسواق..

هكذا..

لم يكن يصعب علينا الحديث في أي موضوع. نتناوله في كثيرٍ من الطلاقة، ونتفاعل مع الكلمات (إذا صحّ أنّها كلمات) في مطلق البساطة، ونردّ عليها. بل وصل بنا الأمر إلى درجة أنّنا ألفنا بعض الأغاني بلغتنا الجديدة هذه.. أغانٍ صامتة، وكنّا نهزّ رؤوسنا طرباً لها..

وإذا كان أحدنا في مزاجٍ خاصّ، فبوسعه مناشدة أصدقائه:

- اخفضوا أصواتكم رجاءً.. أنتم تزعجونني..

ولا يعني - بالطبع - الأصوات التي تتلقّاها الأذن، بل تلك الذبذبات السّرّيّة التي دزبنا حواسنا الأخرى على

استقبالها، ومعالجتها، والاستجابة لها. ذبذبات نجهل طبيعتها، وإن كنّا نفهمها، ونتعامل معها ببراعةٍ لم نكن نتوقعها إطلاقاً..

الأجمل من ذلك أننا كنّا نتخاطب، ونحن مستلقون على أسرّتنا دون أن ننظر إلى بعض، وأحياناً بعيونٍ مغمضة.. أحاديث ما قبل النوم.. الأحاديث الخفيفة التي لا تخلو من المرح..

كانت لغة تخاطر عبقريةً أكثر منها لغة إشارات..

أمّا في الحالات النادرة التي لا نجد فيها ما يلبّي حاجتنا في معجم إشاراتنا (أو تخاطرنا) الكبير؛ فقد كنّا نلجأ إلى الكتابة..

نجاح باهر، لم نتوقعه. انتصارٌ جديد يضاف إلى سلسلة الانتصارات العظيمة السابقة. لم يعد لدينا شك في أننا أقوياء. عالمٌ من الصمت، لكنّه حي، وغني، وسلس، ويسير دون أيّة مشاكل، أو عقباتٍ..

وباللغة الخاصّة التي ابتكرناها، قلنا:

- سننجو..

وبها نفسها، أضفنا:

- الأصوات ليست كلّ شيء..

وكدنا نحبّ صمتنا. كدنا نألفه، ونعيشه، كما لو أنّه الحالة الطبيعية التي يجب أن تكون. وما سواه هو الشذوذ، أو الخروج عن المألوف..

كنّا على وشك أن ننسى أننا كنّا نتكلّم في يومٍ من الأيّام عندما استعدناها.. أصواتنا..

هكذا.. كما فقدناها - فجأةً - عادت إلينا فجأةً. أصواتنا ذاتها، وبكامل مواصفاتها، باستثناء أنّها كانت مشروخةً قليلاً، إذا جاز لنا أن نُسمّي هذا النوع من البحّة التي تخلّلتها (شرخاً). نشعر بها مشروخةً بالفعل عندما

يخطر لنا خصوصاً أن نكلّم الأشياء من حولنا: الجدران. المقاعد. المخدّات. أكواب الشاي. النباتات. الأقلام. أعقاب السجائر. الذباب.. تخرج الكلمات من أفواهنا خشنة قليلاً، كما لو أنّ مجرى الهواء في حلوقنا، حيث لا بدّ من مرورها، مرصوف بحجارة، تصلّبت لتوّها وأصبحت لها رؤوسٌ مدبّبةٌ كالمسامير..

الاستثناء الآخر أنها كانت من طبقتين، صوت وصدى، كما لو أنّ لدى كلّ منّا حنجرتين، لا حنجرة واحدة، وكلّ منهما تعمل بفارق توقيتٍ عن الأخرى، بما يعادل عُشر الثانية، أو أقلّ، كما حاولنا أن نحسبها.. نتلمّس هذا - أيضاً- في أحاديثنا مع الأشياء.. المخدّات بالذات..

لم نعلّق. اكتفينا بالقول:

- نتغلّب عليه بقليلٍ من التدريب.. أو ليبق كما هو.. لن نتأثّر.. فنحن - أصلاً - لا نخاطب المخدّات في الأوقات جميعها.. نفعلها من باب التسلية، لا غير.. أو عندما نكون مؤرّقين، وما من شيءٍ أقرب إلينا من المخدّات تحت رؤوسنا.. نستغلّ الفرصة لنفضي إليها ببعض مشاكلنا الخاصّة.. يحدث هذا، ولكنْ؛ ليس طيلة الليالي جميعها..

عات أصواتنا إلينا إذاً.. وهذا هو المهمّ..

وكالعادة كان لا بدّ من احتفالٍ بالمناسبة..

***

قال لي الخمسيني، وهو يُبعد فنجانه في كثيرٍ من الاشمئزاز:

- هنالك حربٌ في الخارج..
- حرب؟!!..

قلتُ مصدوماً..

ثمّ أعدتُ السؤال؛ لأتأكّد من أنني سمعتُ الكلمة جيّداً:

- حرب؟!!..
- نعم..
- هل سمعتَ شيئاً؟.. إطلاق رصاص؟.. انفجارات؟.. هدير طائرات؟.. نحيب نساء؟..
- لا طبعاً..
- شممتَ رائحة دخان؟..
- لا.. لا.. حدس.. مجرّد حدس..

وأشار إلى فنجان القهوة شبه الممتلئ على الطاولة:

- وهذه القهوة الرديئة.. شكلٌ من أشكال التقتير.. لن يستجيبوا لطلبنا في تغييرها.. ننتظر قليلاً..

وأردف:

- ليست جميع الحروب طويلةً، كما تعلم..

خسرنا الثلاثيني (الذي كان عشرينياً في السابق)..

في كلّ حرب، لا بدّ من ضحايا. طبعاً. ونحن لسنا استثناء..

حدث هذا بعد بضعة أشهر من الحرب..

لم نتوقّع أنها ستطول إلى هذا الحدّ. تخيّلناها حرباً خاطفة. أسبوعاً، أو أسبوعين، في الأكثر.. لكنّنا كنّا مخطئين.. فالبنّ - رغم مرور هذا الوقت كلّه - ما يزال رديئاً. والسجائر لم تعد تصلنا بالكفّيات المعتادة. كما أنّهم توقّفوا عن تنظيف الأرائك، فاضطررنا إلى فعل ذلك بأنفسنا.. وبشكل عامّ، فإنّ معظم طلباتنا صاروا يستجيبون لها متأخّرين، أو يتجاهلونها أحياناً..

كان واضحاً أنها حربٌ شرسة ومكلفة.. معركة حياةٍ، أو موت..

في تلك الليلة، كان النقاش ساخناً حول الحرب.. إلى أين نمضي؟.. أصدقاؤنا. أعداؤنا. الخيانات. التحالفات. الخرائط. الحدود. الأسلحة... والمرايا بطبيعة الحال، والتي يكلّفنا غيابها المزيد من الدماء كلّ يوم..

تكلّم الثلاثيني كثيراً تلك الليلة. ورفع صوته. وكان يضرب الطاولة بقبضته. ويعضّ على شفتيه. ويبتلع ريقه إثر كلّ عبارةٍ، يقذف بها من فمه.. وعندما غادرنا إلى فراشه، رأينا وجهه محمرّاً، وكان ثمّة عِرْقٌ ينبض على جبهته.

في الصباح، وجدناه جثّةً متخشّبة. أطرافه كانت باردة. وانتبهنا إلى أنّ شفتيه كانتا زرقاوين. مات، وهو يعضّ عليهما. أثر أسنانه كان واضحاً.. أغرب ما في الجثة العينان. كانتا مفتوحتين. رأينا ما يشبه صرخة استغاثةٍ ما تزال عالقةً فيهما.. هل كان يصرخ؟.. لمَ لم نسمع شيئاً، إذاً؟..

عثرنا على قصاصة ورقٍ تحت وسادته. كانت قصيدةً عن الانتصارات المقبلة. قصيدة غاضبة، وفيها تهديد بالانتقام..

علقتم بهذا الوحل الممزوج بدماءنا

فخ نصبناه لكم

وقريباً ستتحلل أجسادكم

ستصبحوا سماداً

وعليه ستتغذا أشجار ليموننا، وحقول حنطتنا»

وأشياء من هذا القبيل..

لم نكن نعلم أنّه يكتب الشعر. لم يبدر منه ما يدلّ على أنّه يهتمّ بالقراءة أو الكتابة أصلاً، باستثناء تلك الأوراق الصغيرة التي كان يكتبها متضمّنةً طلباتنا.. كنّا نلاحظ أنّه يمضي الكثير من أوقاته في العناية بالنباتات، لا سيّما في فترات احتضارها. يحاول جاهداً إنقاذها. وأحياناً كان يتابع الأفلام. فضلاً عن براعته في الطبخ.. كان الشعر موهبةً، تأخّرنا في معرفتها عنه.. الآن فقط.. بعد موته للأسف..

ورغم أنّها كانت مسوّدة، ولم تكتمل، فقد أثّرت القصيدة فينا كثيراً. قرّرنا الاحتفاظ بها، لعلّ الوقت يُسعفنا، في ما بعد؛ كي نصحّح الأخطاء القليلة فيها.

كتبنا لهم نخبرهم بالحادث المفجع. وانتظرنا يومين كاملين. لكنّهم لم يفعلوا شيئاً. قدّرنا أنّها أعباء الحرب تشغلهم عنّا. الحرب لعينة دائماً..

- لديهم مسؤوليّاتهم..

قلنا..

لذلك فكّرنا أن نتصرّف..

كنّا نخشى أن يدهمنا الوقت. فالجثّة ستتفسّخ حتماً. عاجلاً أو آجلاً ستتفسّخ..لذلك قرّرنا أن نضعها في الحمّام، لا لأنّه أبرد قليلاً وحسب، بل لأنّه المكان الذي ندخله أقلّ من سواه. لم يكن لائقاً أن تظلّ أمام أعيننا طوال الوقت، ونحن نجلس، أو نستلقي، أو نتمشّى، أو نأكل، أو ندخّن، أو نخاطب مخدّاتنا.. من حقّ الجثث أن تكون بعيدةً عن أنظار الآخرين. من حقّها أن تعيش موتها في صمتٍ وهدوءٍ وعُزلة. فالموت - في النهاية - شأنٌ شخصيّ جداً. حالةٌ خاصّة وسرّيّة.. أن تموت وحيداً. لا أحد يراقبك. لا أحد يتلصّص عليك. لا أحد يقف فوق رأسك، وبيده ورقة وقلم؛ ليُدوّن سجلاً مفصّلاً بالتحوّلات التي تمرّ بها جثّتك، بدءاً من الجسد الممدّد البارد وصولاً

إلى كومة العظام المنخورة..

يضاف إلى ذلك - لمزيدٍ من الصراحة - أنّ هذه التحوّلات - بالذات - كانت تُثقلنا أكثر من أيّ أمرٍ آخر.. كنّا نتخيّلها، فنُصاب بالرعب.. تتملّكنا رغبةٌ في الإقياء..

تورّم الجثّة.. واسودادها.. وتشقّق جلدها.. واندلاق أحشائها.. ورائحة العفن، وهي تتسرّب من مسامات جلدها المفتوحة كفوهات البراكين على شكل بخارٍ سرعان ما ينعقد غمامةً زرقاء كتيمة، تحوّم فوق رؤوسنا.. أسراب الدود تقرض اللحم في إيقاعٍ رتيب، يُتلف الأعصاب.. الدمامل، وهي تحتقن بالسوائل، وتنمو شيئاً فشيئاً، ثمّ تنفقئ ليلاً دون صوت، ويتطاير منها رذاذ القيح الأصفر اللزج، لنراه عندما نستيقظ من نومنا، وقد لطّخ وجوهنا وملابسنا..

أشياء لا نستطيع غضّ النظر عنها. لا نستطيع تحمّلها.. باختصار.. نكذب على أنفسنا لو قلنا إنّها لا تعنينا.. نعم.. الثلاثيني صديقنا الجميل الذي سنفتقده حتماً. لكنّ هذا شيء، وأن نعيش مع كومة نفاياتٍ، تتحلّل شيءٌ آخر..

- لا ندخل الحمّام إلّا للضرورة. ولا داعي للاغتسال إلّا بعد أن نجد حلّاً للجثّة.. قضاء الحاجة - أيضاً - لا يتمّ إلّا بعد أن يتعذّر علينا الاحتمال. نضبط أنفسنا قدر ما نستطيع، وحين لا يعود ثمّة إمكانيّةٌ للانتظار، فينبغي أن ننتهي من الأمر بأقصى ما يمكن من السرعة.. علينا أن نتخلّى عن بعض عاداتنا المفضّلة.. الالتصاق بمقعد المرحاض، مستغرقين في تأمّلاتنا حول الوجود والخلق ومستقبل البشريّة والحرب والسلام والحبّ والجمال، وتطوير تكتيكاتنا في لعبة الشطرنج، واختراع وصفاتٍ جديدةٍ للطعام.. لا مجال لذلك.. أوقات الرفاهية انتهت..

وأضفنا:

- هذه هي الحرب.. استثناءٌ في كلّ شيء.. حالة طوارئ على مدار الساعة.. وتنازلاتٌ مؤلمةٌ، لا بدّ منها دائماً..

في قرارات أنفسنا، لم نكن راضين - تماماً - عن هذا التصرّف. أن نترك صديقاً عزيزاً في الحمّام يكابد موته وحده، ونجلس هنا.. نعم.. هنالك خصوصيّة للموت يجب أن تُحترم، ولكنْ؛ ليس بهذه الطريقة.. ليس في الحمّامات..

كان سلوكاً فيه الكثير من الخسّة والدناءة. نعترف بهذا علَناً، وبكلّ جرأة.. ولكنْ؛.. ماذا عسانا نفعل؟.. الحياة في غرفة النوم إلى جانب جثّةٍ في طريقها إلى التفسّخ أمرٌ لا يُطاق.. ثمّ إنّها حرب.. حرب.. وفي الحرب، عليك أن تتقبّل أنماطاً من السلوك، لا تحبّها، ولا ترضاها..

لكنّ الحمّام يبقى حلّاً مؤقّتاً.. لقد أمضت الجثّة - حتّى الآن - يومين كاملين في الحمّام.. حان الوقت - إذاً - لنفعل شيئاً..

اقترح أحدنا أن نُفرغ الثلّاجة من محتوياتها، ونضع الجثّة داخلها..

- نكسب وقتاً إضافيّاً.. يمكن لها أن تصمد داخل الثلّاجة شهراً، أو أكثر..
- نعم.. وخلال ذلك نتدبّر أمر الطعام والشراب.. هنالك أولويّات تفرض نفسها علينا، ولا بدّ من مراعاتها..

غير أنّ الحلّ لم يبدُ لنا عمليّاً..

تفطّنا إلى الأمر، فاستدركنا:

- مؤكّد أنّ الثلاجة لن تتّسع له جسداً واحداً كاملاً.. سنضطرّ إلى تقطيعه كذبيحة، ووضعه في أكياس..
- لا، طبعاً.. لا يليق بنا أن نفعل ذلك.. لسنا سَفَلَةً إلى هذا الحدّ..
- وهو شاعرٌ أيضاً.. ومناضلٌ صاحب قضيّة.. يجب ألّا

ننسى.. يجب أن يعامل باحترام..

- والأهمّ أنّنا في حرب.. لا تنسوا.. قد تنقطع الكهرباء في أيّ لحظة.. ما الذي يمكننا فعله بأكياس اللحم عندئذٍ؟..

تحاورنا طويلاً.. ثمّ قلنا:

- لماذا نذهب بعيداً؟.. المكان الطبيعيّ لأيّ جثّة هو القبر.. من الحمق أن نخالف سلوكاً، اعتادت عليه البشريّة منذ ملايين السنين..
- هنا؟.. ندفنه هنا؟!!..
- لمَ لا؟..
- نحتاج إلى معاول ورفوش..
- نطلبها.. نعمل ما علينا، وعندما لا يستجيبون، نفكّر في حلّ آخر..
- نتّفق - أوّلاً - على المكان الأنسب للقبر..

وأردفنا:

- المهمّ أن يكون بعيداً عن الأسرّة؛ حيث ننام..

تلفّتنا حولنا. نعم. هناك. كان واضحاً أنّه ما من مكانٍ أفضل..

- أسفل النافذة..

***

كنّا قد امتلكنا نافذةً، بالفعل..

لم نقل ذلك؟..

حسناً..

وكان لدينا بابٌ أيضاً...

في لحظة تجلٍ غامضة، خطر لنا - ذات يوم - أن نبحث عن طريقةٍ، نُحسّن فيها من شروط حياتنا هنا. لم نكن نعني أنّها حياة بائسة، أو لا تحتمل، لكنّها الرغبة في التطهّر من بقايا ذلك الشعور الثقيل العالق في ثنايا أرواحنا، بأنّنا وحيدون ومعزولون عمّا حولنا. شعورٌ قد تمرّ أيّامٌ وأسابيع، وشهورٌ أحياناً، وهو كامنٌ، لا يتحرّك. نبدو أصحّاء تماماً. لكنّه يستيقظ فجأةً. يضرب كزلزال. ثمّ يقذفنا بتلك السلسلة المروّعة من النبضات الصاعقة، منتزعاً إيّانا من طمأنينتنا؛ ليجعلنا ندور حول أنفسنا كالمجانين.. يرتدّ بنا سنواتٍ بعيدةً إلى الوراء، إلى اللحظات الأولى التي قدمنا فيها إلى هذا المكان؛ حيث الصدمة البكر، والأسئلة الطفوليّة الصعبة التي لا أجوبة عليها.. من أين جئنا؟.. وكيف؟.. ولماذا؟.. وما الذي ينتظرنا بعد؟..

ومع أنّ الحالة كانت تمرّ بنا على فتراتٍ متباعدة، ومع أنّنا كنّا نخرج منها سريعاً، فإنّ ذلك لا يعني أنّها لا تضايقنا.. كانت تُؤلمنا في الحقيقة.. وكانت تترافق مع كمّيات هائلة من العَرَق، تنضح به جلودنا، ما يضطرّنا إلى استبدال ملابسنا، والاغتسال ساعاتٍ، إلى أن يزول آخر أثرٍ للروائح الحامضة الدبقة التي كانت تعلق بنا..

تداولنا أفكاراً كثيرةً بهذا الخصوص. ثمّ قلنا:

- نوافذ في الغرفة يمكن أن تحلّ لنا المشكلة.. أو جزءاً منها على الأقلّ..

تلقّفنا الفكرة، واستغربنا كيف لم تخطر لنا طيلة هذه السنوات..!!

- نعم.. نوافذ تُشعرنا أنّنا لسنا في قبر.. تسمح لأرواحنا بالتحليق هناك بين الحين والآخر.. نحتاج إلى هذا؛ كي لا تتحنّط.. كي تحافظ على طراوتها قليلاً، ولا نتحوّل إلى مومياوات، يمكن أن تتفتّت مع أهون

هبّة ريح..

ولم نضع الوقت.. وغرقنا في حساباتٍ معقدة..

استهلكنا الكثير من الأوراق وأقلام الرصاص وفناجين القهوة. عشرات المخطّطات. معادلات رياضية. ورسومات بيانيّة. وإحصاءات. وقياسات. ونقاط. وأسهم تتجه إلى الأعلى، وأخرى إلى الأسفل، وإلى اليمين وإلى اليسار، مفترقةً أحياناً، ومتقاطعةً أحياناً أخرى.. شبكة معقدة من الخطوط والدوائر والرموز.. ونقاشات صاخبة.. آراء. وآراء مضادة..

تحدّثنا مطوّلاً حول عدد النوافذ. ثلاث نوافذ، أم أربع، أم أكثر؟.. وحول مواقعها.. وأبعادها.. وحول ما إذا كان ينبغي أن تكون مستطيلةً كنوافذ الأجنحة الملكيّة في الفنادق الكبرى، أو مربّعةً كنوافذ السجون، أو دائريّةً صغيرة كنوافذ الغوّاصات وخوذ روّاد الفضاء، أو بزوايا مقوّسة كنوافذ الطائرات..

لم نكن ننام أكثر من ساعتين في اليوم. واقتصرنا في طعامنا على الوجبات الخفيفة السريعة. وبمرور الوقت، أصابنا الهزال، ولاحظنا أنّ جلودنا أخذت تجفّ. كانت تتقشر، وتسقط منها قطعٌ متقزنةٌ، كالحراشف.. هذه الدرجة المتقدّمة من الإعياء كانت نذيراً واضحاً لنا، عرفنا معها أننا وصلنا إلى طريق مسدود..

- لا جدوى..

في هذه اللحظة، ونحن على وشك أن نتخذ قرارنا بإلغاء المشروع كلّه، هجمت علينا تلك النوبة اللعينة.. شعورنا الثقيل بالعزلة.. وكالعادة: السلسلة المروّعة من النبضات الصاعقة. ودرنا حول أنفسنا كالمجانين.. لكنّها - هذه المرّة - كانت عنيفةً ومؤلمةً، كما لم نعشها من قبل..

عندما استعدنا وعينا، قلنا:

- نحن في خطر.. ما حسبناه نوباتٍ عابرةً في طريقه لأن يتحوّل إلى مرضٍ مزمنٍ، يستحيل علاجه.. لا بدّ

أن نتصرّف في حسّ أعلى من المسؤوليّة؛ كي لا نندم مستقبلاً..

تبادلنا النظرات.. ثمّ هززْنا رؤوسنا أسفاً وحيرةً وقلقاً وشكّاً وإحساساً متفاقماً باللاجدوى.. وبصوتٍ هامسٍ منكسرٍ، سألنا:

- والعمل؟..

كان لا بدّ من جواب..

أحدنا وضع يده على أوّل الطريق، وهو يقول:

- نحن متطلّبون أكثر ممّا ينبغي.. أربع نوافذ، وخمس، وإطلالات جميلة، وإطارات مزخرفة، وزجاج ملوّن في بعضها، وشفّاف في البعض الآخر.. هذه ليست طريقةً في العمل.. لنتواضع قليلاً.. لنكن عمليّين...

وتابع فيما آذاننا مفتوحةٌ، تُنصت إليه باهتمام:

- نعمل بحسب إمكاناتنا.. بحسب ما هو متاحٌ فقط.. ولا ضرورة للمبالغة..

وفعلتْ كلماته فعلها.. أعادتنا إلى برّ الأمان بعد أن كنّا نُجذف في بحرٍ مظلمٍ عاصفٍ من الأوهام..

هكذا..

وعدنا إلى أوراقنا ومخطّطاتنا..

لم يطل الوقت كثيراً. استقرّ بنا الرأي حالاً، على أنّ التفكير في أربع نوافذ، أو خمس، يعني نيّةً مسبقةً لإفشال المشروع كلّه..

- نافذةٌ واحدةٌ تكفي.. نافذةٌ صغيرة.. بما يسمح لعينين بشريّتين أن تتسلّلا بنظراتهما إلى الخارج عبرها.. فقط.. لا نحتاج أكثر من ذلك..

أمّا مكانها؛ فلم يستغرق النقاش حوله سوى دقائق..

- هنا..

ووضعنا علامة X على نقطةٍ ما في المخطّط..

هنا.. حيث تكون في مرمى بصر أيٍّ منّا، فيما لو كان ممدّداً على سريره، يخطّط لمستقبله، أو يصارع حنيناً مفاجئاً إلى الماضي، أو يبحث عن تفسيرٍ لحزنٍ غامضٍ، يتسلّل إلى قلبه؛ ليجعله هشاً كغيمة، أو طريّاً كقطعةٍ من الطين، أو خفيفاً ككومة ريش.. أشياء نعلم بحكم الخبرة أنّها مقدّماتٌ لنوبة الألم التي نسعى إلى اجتثاثها؛ لنعيش حياتنا الطبيعية الهادئة..

كانت النافذة إطاراً من بقايا الخشب، جمعناها من هنا وهناك. ثبّتنا الإطار على الحائط، ثمّ أرخينا فوقه ستارةً، صنعناها من ثيابٍ قديمةٍ، لم نعد نستعملها..

ودشّنا النافذة في احتفالٍ صغير..

- بصحّة نافذتنا..

رفعنا كؤوسنا، ونحن نضحك..

وأصبح تقليداً راسخاً لدينا أن نزيح الستارة عنها صبيحة كلّ يوم أربع ساعاتٍ، أو خمساً، ثمّ نسدلها عندما نقدّر - بناءً على الحسابات المسبقة التي أجريناها - أنّ الشمس أصبحت في نقطةٍ من السماء، تسمح للأشعة اللاهبة بالتسلّل. ومساءً، نزيحها مرّةً أخرى، ثمّ نعيد إسدالها قبل النوم.. نفعل هذا يومياً. نواظب عليه في طقسٍ مقدّسٍ، لم نتهاون فيه أبداً. نمارسه في حرصٍ شديد. ولم يحدث مطلقاً أن أهملناه، أو قصّرنا في أدائه..

***

بمرور بضعة أسابيع، فكّرنا بالباب.

قلنا:

- طالما أصبحت لدينا نافذة، فلمَ لا يكون لدينا بابٌ أيضاً؟..

وبدأنا جولةً أخرى من الحسابات الدقيقة الطويلة. المزيد من الأوراق والأقلام والقهوة والسجائر والتمرينات الخاصّة للتخلّص من الصداع وتشنّجات عضلات الرقبة

والكتفين..

ونجحنا.. ووضعنا علامة x أخرى على المخطط؛ حيث الجدار المجاور لجدار النافذة من جهة اليسار؛ لتكون موضعاً له.

لم يكن لدينا ما يكفي من الخشب هذه المرة، ولم تتمّ الاستجابة لمطلبنا بتزويدنا بكمّياتٍ إضافيةٍ منه، فاكتفينا برسم مستطيلٍ في المكان المحدّد على الجدار..

قلنا:

- مؤقّتاً.. ريثما تسعفنا عقولنا بأفكارٍ أفضل وأجدى..

ثمّ صبغناه بلونٍ بنّيٍ أقرب إلى لون الصدأ منه إلى لون الخشب. لم يتح لنا سواه. صباغٌ حضّرناه بأنفسنا يدويّاً بطبخ بعض الورق مضافاً إليه خليطٌ خاصٌ من الخضار والفاكهة وزيت السمسم والطحين الأسمر المحمّص..

وراعينا أن يكون باباً، بلا قفل..

- لتبق إمكانيّة فتحه في أيّ لحظة قائمةً دائماً.. يجب أن نظلّ مستعدّين لأيّ مفاجأة، مهما كانت بعيدة..

كنّا حريصين على أن يظلّ الطريق إليه سالكاً طيلة الوقت..

- لا نضع أمامه شيئاً، يمكن أن يعيق حركة الدخول، أو الخروج.. لا صناديق. لا مقاعد. لا أحذية يمكن أن نتعثّر بها، ونحن نهرول باتجاهه لاغتنام فرصةٍ، قد تأتي.. مَن يدري..!!

وأسميناه (يوم الباب)، وصرنا نؤرّخ به: قبل.. وبعد..

- بصحّة بابنا..

وقرعنا كؤوسنا مرّةً أخرى.. وضحكنا..

لم تطل نقاشاتنا حول المكان الذي يمكن أن ندفن فيه جثة صديقنا الراحل. حسمنا الأمر سريعاً..

- هناك.. أسفل النافذة..
- نطلب المعاول والرفوش؟..

لكنّ الخمسينيّ حك رأسه فجأة، ثمّ قال:

- نؤجّل ذلك قليلاً.. أ ليس أفضل؟..

استغربنا كلامه. لم يُقنعنا. كنّا سنتجاهله، كما لو لم يخرج من فمه أصلاً، لولا تلك النبرة الجادّة التي لمسناها فيه..

سألناه:

- نؤجّل ذلك؟.. كيف؟..

فأجاب:

- أتوقّع أنّهم لن يدعونا هكذا.. لدينا تجارب سابقة معهم.. أصبحنا نعرفهم جيّداً..

وأضاف:

- يرتّبون لهدنةٍ قصيرة. الأغلب أنّ الأمر كذلك.. وحينها سيتصرّفون.. عندما تكون في معركة، لا تستطيع أن تفكّر في سحب الجثث. يجب أن نفهم هذا. تترك الأمر إلى أن تتّفق مع عدوّك على هدنةٍ، تمكّنك من القيام بواجبكَ الأخلاقيّ والإنسانيّ..
- لكنّ الوقت ضيّق جداً.. ليس معقولاً أن ننتظر.. لا نستطيع أن نراهن على حَدَثٍ، قد يتأخّر أيّاماً، أو أسابيع، أو قد لا يقع إطلاقاً.. مَن يتحمّل مسؤوليّة

ذلك؟..

- يوم واحد فقط.. لن نخسر شيئاً.. تستطيع جثّة صديقنا البقاء في الحمّام يوماً إضافيّاً آخر.. لن تخذلنا في هذا.. دعونا نحسن الظنّ بها، ونرى..

وصدق حدس الخمسيني..

لم نكن متأكّدين من أنها هدنة حقاً.. قد تكون مغامرةً بطوليةً، قاموا بها. أوامر أصدروها لبعض جنودهم، بمغادرة أرض المعركة، والتوجّه إلينا حالاً لمعالجة مشكلتنا الطارئة، مع ما يعنيه ذلك من خطر التعرّض لهجومٍ معاكسٍ، يشنّه العدوّ مستغلاً الفراغ الذي سيتركونه.. أو ربّما كان العدوّ قد اضطرّ إلى الانسحاب في هذه الجبهة حيث نقيم إلى جوار جثّة صديقنا الثلاثيني، بأن استجزوه إلى جبهةٍ أخرى، ما خفّف الضغط عنهم، وسمح لهم أن يبادروا.. أو قد تكون هدنةً، بالفعل.. لمَ لا؟.. أو عاملاً آخر مختلفاً.. الاحتمالات كلّها واردة.. وفي الحروب علينا ألّا نستبعد شيئاً..

لم نكن متأكّدين من حقيقة ما جرى..

المهمّ أنّنا عندما استيقظنا في اليوم التالي كانوا قد حملوا الجثة، وهذا ما كان يعنينا أكثر من سواه.. حملوها في الوقت المناسب، في اللحظة الأخيرة؛ لأنّنا انتبهنا، ونحن ندخل الحمّام تلك الليلة للتبوّل، كما اعتدنا دائماً قبل النوم، إلى أنّ انتفاخاً صغيراً، أخذ يظهر عليها. كان صديقنا يتورّم. ضاقت الملابس عليه. كانت مشدودةً، ما أدّى إلى انقطاع أحد أزرار القميص؛ حيث انكشفت بطنه. رأينا سرّته تبرز إلى الخارج كثمرة جوز جافّة..

عرفنا - عندئذٍ - أنّنا سنواجه ليلةً عصيبة. ولم نُخطئ. فقد أخذت تتسلّل إلينا من أسفل الباب روائح غريبة. الروائح نفسها التي كانت رُكبنا تتقصّف رعباً منها.. بدأت خفيفةً محتملةً أوّل الليل، ثمّ اشتدّت في منتصفه حتى أصبح نومنا مستحيلاً. بخارٌ أزرق اللون، كان يندفع على شكل موجاتٍ متتالية. موجةٌ إثر أخرى. وفي تواترٍ

متسارع.. لم تجد نفعاً الخرق المبلّلة التي سددنا بها الفتحة أسفل الباب، ما اضطرّنا - أخيراً - إلى استخدام الكمّامات. قطعٌ من القماش خطناها بعد أن حشوناها بطبقةٍ رقيقةٍ من القطن، وأضفنا إليها قطراتٍ من العطر. كان تدبيراً احترازيّاً، نصحنا به الخمسينيّ مسبقاً..

قال:

- نتحسّب لأيّ طارئ..

كانت الكارثة على الأبواب. وقلنا نؤنّب أنفسنا:

- ذنبنا.. لم يكن علينا أن نصدّق الخمسينيّ..

لكنّها انتهت الآن.. في اللحظة المناسبة.. اختفت الجثّة، واختفت الروائح، ونزعنا كمّاماتنا، وصار بإمكاننا أن نتنفّس بعمق.. عاد كلّ شيء إلى طبيعته.. وتوجّب علينا أن نعتذر إلى الخمسيني عن سوء ظنّنا به..

ومع ذلك، كنّا نتألّم. شيءٌ أقرب ما يكون إلى طعنةٍ في القلب. غير أنّ النزيف كان إلى الداخل..

الثلاثينيّ المسكين..

أقمنا له حفل تأبين متواضعاً. ألقينا كلماتٍ مقتضبةً، استعدنا فيها بعض ذكرياتنا معه. وبكيناه.. حزّ في نفوسنا كثيراً أنّنا فقدناه بهذه الطريقة، وبهذه السرعة، وفي ظرفٍ صعبٍ كهذا الظرف.. وحزّ في نفوسنا أكثر أنّنا لم نكن نمتلك صورةً له؛ لنوشّحها بشريطٍ أسود، ونعلّقها على الجدار. كنّا سنلقي عليها التحيّة كلّ صباح:

- صباحك سعيد، أيّها الثلاثينيّ العزيز.. أ أنت بخيرٍ الآن؟..

تماماً كما لو أنّه حي..

وكان سيجيبنا:

- وصباحكم، أيّها الأصدقاء..

ثمّ يلوّح لنا بيديه..

لكنّ الصور الشخصية ممنوعةٌ هنا للأسف. كالمرايا تماماً. جرّبنا من قبل أن نطلب كاميرا، لكنّهم لم يستجيبوا.. والأسباب مجهولة أيضاً..

حسناً.. لا نملك صوراً له.. لكن؛ ثمّة ملابس، كان يرتديها. حذاؤه. سريره. غلاف آخر علبة سجائر دخّنها. عقب آخر سيجارة. القلم الذي كان يكتب به الطلبات. فرشاة أسنانه أيضاً. والكمامات التي أنقذتنا من رائحة جثته ليلة أمس.. ولا ننسى - قبل ذلك كلّه - مسوّدة القصيدة..

- مقتنياتٌ ثمينةٌ تصلح لإقامة متحفٍ صغيرٍ له في إحدى زوايا الغرفة.. ما رأيكم؟..

أعجبتنا الفكرة..

قلنا:

- نخلّد ذكراه.. أبسط ما يمكن أن نفعله..

لكنّ الأربعينيّ اعترض قائلاً:

- يستحقّ طبعاً.. صديق، وشاعر، وكان يكتب لنا طلباتنا.. لكن؛ لا تنسوا أنّنا في حرب..

فكّرنا قليلاً. ثمّ وجدنا أنه اعتراضٌ في محلّه.. تقبلنا ملاحظة الأربعينيّ مُرخبين.. كيف لم ننتبه؟!..

وأضفنا:

- نعم.. ليس هذا وقت المتاحف.. ندع ذلك إلى ما بعد الحرب.. نضيفه إلى قائمة خططنا المؤجّلة.. أمّا صديقنا؛ فيكفي - الآن - أن نحزن عليه..

وتأكيداً على أنّ اعتراضه لم يكن مَبنياً على أيّ موقف من الراحل الكبير، سمعناه يهمس والدموع في عينيه:

- كنتُ آمل أن يطول به العمر أكثر.. كنتُ أودّ أن أعطيه اسمي.. لكنّه القدر..

علّقتُ مواسياً:

- هذه هي الحرب.. الحرب بشعة، أيّها الأصدقاء..

نعم.. بشعة.. جداً..

ثمّ نمنا..

الحرب.. لم ننس الحرب رغم الفاجعة التي مرّت بنا.. هنالك حرب في الخارج. معارك تدور. وضحايا يسقطون. ودماء. وثارات. وأحقاد. وأطفال. وشباب. ونساء..

- ليس في اليد حيلة..

كنّا نعلم أنّه من المستحيل في مثل ظروفنا أن تكون لنا مشاركةٌ فعليةٌ في الحرب. لتكن مشاركةٌ رمزيّةٌ، إذاً. إحساسٌ نعيشه. أن نصبح جزءاً ممّا يحدث، ولو في الشكل..

لن نقاتل. لا نستطيع أصلاً. ولكنْ؛ يمكننا أن نرتدي ملابس الحرب مثلاً. تُشعرنا الملابس أنّنا لسنا بعيدين عن الحدث. ولا بأس أن ندرّب أنفسنا على بعض الأعمال القتالية.. الهجوم. الإغارة. الاستطلاع. الكمين. الاشتباك. الانسحاب التكتيكي.. وسواها.. في حدود ما نستطيع طبعاً.. يمكن أن تكون المسافات التي تفصل بين الأسرّة خنادق. المقاعد متاريس. النافذة موقعاً للرصد. الخزانة مستودعاً للذخائر. علبة الإسعافات الأوّلية مستشفى ميدانياً. قصيدة الثلاثيني نشيداً وطنياً.. أشياء كثيرة يمكن أن نستفيد منها.. هذا إذا كنّا جادّين بالفعل..

- لكنّنا نحتاج ملابس عسكريّة قبل ذلك..

طلبنا أن يرسلوا إلينا ملابس وأحذية. طقمين لكلّ واحد. نحن في حرب. نرتدي ملابس الحرب على الأقلّ.. وطلبنا خوذاتٍ أيضاً. ومطرات مياه. ومناظير ليليّة. وحبالاً. ومعدّاتٍ للحفر.. ولم ننس.. هنالك الأسلحة.. طلبنا بنادق، ورمّانات، وقاذفات تُحمل على الكتف، وأسلحة خفيفة أخرى.. وخشية أن يُساء فهمنا، أكّدنا لهم أنّنا لا نقصد أسلحةً حقيقيّة، بل ألعاباً للتدريب..

- من الخشب، أو البلاستيك..

لكنّهم تجاهلونا!!..

قلنا:

- ملابس فقط. طقمٌ واحدٌ يفي بالغرض.. بنطال وسترة.. ولا ضرورة للأسلحة / الألعاب.. نتدبّر أمرنا..

وتجاهلونا أيضاً.. فتوقّفنا..

قلنا:

- هنالك أسبابٌ قاهرةٌ حتماً.. علينا ألّا نلحّ كثيراً..

***

وبمرور الوقت، لاحظنا أنّ شيئاً بدأ يتغيّر..

نوعيّة البنّ تحسّنت. لم يكن من النوع القديم الفاخر، لكنّه مقبول. مستوى الخدمات أصبح أفضل، على نحوٍ ملموس. كميّات ممتازة من الطعام. وقناتا الأغاني وأفلام الطبيعة عادتا إلى البثّ مرّةً أخرى بعد أن انقطعتا منذ فترة..

وفي محاولةٍ لتفسير ما يجري، قلتُ:

- الموقف جيّد إذاً. يتحسّن.. والاقتصاد بخير. بدأ يستعيد عافيته.. كلّ شيءٍ تحت السيطرة.. هذا مطمئن.. ودم الثلاثينيّ لم يذهب هدراً.. نحن ننتصر..

لكنّ الخمسينيّ كان له رأيٌ مغاير. كان يعتقد أنّ شكل المعاملة هذا استثنائي، وخاصّ بنا.

قال:

- الحرب، أيّ حرب، بشعة. ثقوا تماماً. في الحرب لا يمكن أن يبقى شيءٌ على حاله. لا بدّ من معاناة. لكنّهم يقدّرون الظرف الخاصّ الذي نعيشه. من المرجّح أنّهم لا يريدون الإثقال علينا بتدابير إضافيّة صعبة..

- ونقبل هذا على أنفسنا؟..
- طبعاً لا..

وأشار علينا الأربعيني أن نكتب لهم في الأمر.. أن نشرح لهم رغبتنا في تحمّل مسؤولياتنا كاملةً. لا نريد امتيازاتٍ خاصة. نرفض ذلك بالمطلق.. لسنا تافهين، ولا عاجزين..

قال:

- نكتب لهم أنّنا نعي خطورة المرحلة، وضرورة أن نكون يداً واحدة في المعركة. نحن لسنا أفضل من غيرنا. واللقمة التي نأكلها لا نقبل أن تكون مقتطعةً من أفواه الآخرين. نقبل بما يُبقينا على قيد الحياة فقط. لا ضرورة لهذا الترف كلّه..

أمضينا ثلاثة أيّام في صياغة نصّ الكتاب. شعرنا بالفراغ الذي تركه الثلاثيني. افتقدناه كثيراً. كنّا نعتمد عليه في مواقف من هذا النوع.. شاعرٌ كبير وصاحب خبرةٍ في كتابة الرسائل والطلبات..

- لروحك الرحمة، أيّها الثلاثيني.. غادرتنا باكراً..

معظم الوقت أمضيناه في جدلٍ ساخنٍ حول كلمة (خطورة). لا أدري مَن الذي اقترح كلمة (حساسيّة) بديلاً عنها، وتسبّب لنا بتلك المشكلة كلّها. قد أكون أنا. لا أذكر.. حاولنا أن نستحضر روح الثلاثيني، علّها تسعفنا بحلّ، يُخرجنا من هذه الورطة.. وكانت النتيجة أنّنا قبلنا بالكلمة الجديدة التي اقترحها علينا فقيدنا بإيماءةٍ من إصبعه التي لم نر سوى ظلّها، يرتسم على الورقة شفّافاً ورشيقاً.. وأرسلنا الكتاب..

ولم يتغير شيء. ظلّت الأوضاع على حالها.. المزيد من الطعام، والشراب، واللباس، والدواء، والصبيرات.. وأشياء أخرى..

ومع ذلك، لم نستسلم.

قلنا:

- دورنا الآن.. هذه مواقف، لا ننتظر الإذن فيها من أحد.. نحن مَن يقرّرها.. ونحن مَن ينفّذها..

كنّا واضحين بهذا الشأن.. واتّفقنا على أن نُقنّن استهلاكنا في كلّ شيء..

نأكل ونشرب بالحدّ الأدنى. وجبة صغيرة واحدة، لو اقتضى الأمر. نغسل ثيابنا مرّةً كلّ شهر. ونستحمّ مرّةً كلّ شهر. والكهرباء. نقتصد فيها إلى أقصى درجة ممكنة. لا ضرورة لإضاءةٍ مُبهرة. ولا ضرورة لسماع الموسيقى. ولا ضرورة للتلفزيون..

قلنا:

- نتوقّف عن التدخين..
- ونُرخي لحانا؛ كي نوفّر في معاجين الحلاقة والشفرات..
- نرخيها.. وبهذا نحقن الدم الذي ننزفه في أثناء الحلاقة.. لا نفهم لمَ هذا الإصرار كلّه على حرماننا من المرايا!!..

وتابعنا:

- ونستغني عن الأدوية أيضاً.. نعالج أمراضنا الطارئة بتدليك مواطن الوجع. أو بالكمّادات. أو بتعليق بعض التمائم في رقابنا. أو قراءة بعض التعاويذ..
- وإن لم تسعفنا الذاكرة باستحضار شيءٍ ممّا كنّا نعرفه، فيمكن أن نستعين بروح الثلاثينيّ.. لن يخذلنا.. سيؤلّف لنا ما نشاء من التعاويذ..
- ميثاق شرف، نقسم أن نلتزم به..

وشبكنا أكفّنا.. رفعناها عالياً.. وهززناها كقبضةٍ واحدة..

كنّا شجعاناً حقّاً.. أثبتنا، لأنفسنا قبل الآخرين، أنّنا

أقوياء وأهلٌ لتحمل المسؤوليات في الظروف الصعبة المعقّدة..

- سننجو..

***

لكنّنا - في الوقت ذاته - بقينا قلقين ومتوتّرين.. قلوبنا في الخارج. هؤلاء الذين يموتون كلّ يوم. المشرّدون. المصابون.. كنّا نعلم أنّها مأساة..

ولأنّنا بشرٌ في النهاية، فقد كانت أعصابنا تنهار أحياناً. أجواء الحرب كانت تفرض نفسها علينا. كنّا نتشاجر. نختلف حول أبسط الأشياء.. مواعيد الطعام. مَن ينظّف الصحون. كمّيّة السكّر في الشاي. جمع الغسيل وترتيبه. الستارة على النافذة. مَن رفعها؟ مَن أسدلها؟. المقعد الذي نسيه أحدنا سادّاً به الطريق إلى الباب. أماكن وضع الأقلام. قصيدة الثلاثينيّ. جهود السلام. مخيّمات اللاجئين..

ضبطنا الخمسينيّ مرّةً مخموراً. كنّا قد تعاهدنا في ميثاق الشرف الذي وضعناه على أن تكون الخمر للمناسبات الاستثنائيّة فقط.. الحالات شديدة الخصوصيّة..

حين واجهناه، قال:

- لديّ مناسبة. رأيتُ صديقتي في الحلم..

أذكر أنّه حدّثنا عنها من قبل. مرّةً واحدة، إن لم أكن مخطئاً. لم يقل في أيّ عمر تعرّف إليها. لكنّنا قدّرنا أنّهما كانا ناضجين حينها. فوق سنّ المراهقة. عرفنا أنّه كانت بينهما قبلاتٌ ومداعباتٌ حميمة.. وأنّه كان مغرماً بثدييها الصغيرين خصوصاً..

ومع أنّنا كنّا نعلم يقيناً أنّ أحلاماً من هذا النوع هنا نادرةٌ جدّاً، لا سيّما في ظروف الحرب هذه، فلم نستطع أن نكذّبه.. كيف نثبت أنّه لم يحلم؟..

صرختُ في وجهه:

- سنصدّقك.. لكنّك تعلم أنّنا لم نصنّف هذا الأمر ضمن المناسبات التي تستحقّ الاحتفال..

ثمّ أضفتُ، وقلبي يخفق:

- وكان عليك - أيضاً - أن تستشيرنا.. ربّما احتفلنا معك..
- هي صديقتي أنا.. مناسبةٌ تخصّني وحدي.. لا علاقة لكم بها..

تخصّه وحده!!.. تقبلنا ملاحظته على مضض، وسكتنا.. لم نجد شيئاً، نردّ به عليه..

ورغم كثرة وقوعها، فقد ظلّت خلافاتٍ طارئة. ينبغي القول. ولم تكن تترك وراءها أيّ ذيول. تنتهي عادةً عند حدود الصوت المرتفع، أو التنفيس عن الانفعال الشديد، بتحطيم شيءٍ ما على الأرض، كأس، أو صحن، خشية أن يتطوّر الأمر إلى عراكٍ بالأيدي، ويسيل مزيدٌ من الدم.. الدم بالذات، أعطت له الحرب معنى وقيمة..

أحببنا بعضنا. وكرهنا بعضنا. تماماً كما يحدث بين البشر جميعهم.. التقطنا هذه الحقيقة، وابتسمنا لها؛ لأنّها أشعرتنا أنّنا نحيا على نحوٍ طبيعي جدّاً. نحن لسنا خارج القوانين التي تحكم حياة البشر عموماً..

ورغم هذا.. فالحرب لعينة. والأثمان باهظة.. كرة نارٍ تكبر وتكبر، ولا تتوقف عند حدّ.. هنالك ألمٌ يتجدد على الدوام.. ومآسٍ تُولَد من رحم مآسٍ أخرى..

***

يومها لفت الأربعينيّ انتباهنا إلى أنّهم غيّروا لون الجدران..

قال وهو يرفع إصبعه مشيراً إلى الجدار المواجه، ثمّ يُسقطها سريعاً من شدة الإرهاق:

- لم تكن خضراء..

سألنا:

- هل كانت بلونٍ آخر؟..
- أظنّ أنّها كانت بيضاء..

وحاولنا أن نتذكّر، لكننا لم نصل إلى أيّ نتيجة..

قلنا:

- قد يكون محقّاً..

وأضفنا:

- وقد يكون ذلك عرضاً آخر من أعراض المرض لديه..

كان قد أخبرنا - في أكثر من مناسبة - أنّه يشكو من خدرٍ في ساقيه. وأخبرنا في ما بعد أنّ الخدر امتدّ إلى الذراعين أيضاً.. أخذنا شكواه على محمل الجد طبعاً، لكنّ ما أقلقنا حقيقةً هو تلك الأصوات التي قال إنّه يسمعها بين الحين والآخر. وصفها بأنّها إبرٌ محمّاة تخترق جمجمته...

سألناه، فأجاب:

- أزيز رصاص. طرقات على الأبواب. نقرات مطر على الزجاج. نقيق ضفادع. فزّاعات حقولٍ تسقط. ثمّ تطير بها الريح نحو أماكن بعيدةٍ مجهولة. هياكل عظميّة تتفكّك...

وأضاف:

- أسمع كذلك أطفالاً ينادونني. يزعمون أنّهم أبنائي.. ونساءً يدّعين أنّني أحببتهنّ..

وتابع:

- أسمع - أيضاً - حفيف ثيابٍ، وصرير أسرّة، وشهقات...

كان ذلك نذيراً سيّئاً. تألّمنا كثيراً لحالته، ونحن نراها تتردّى يوماً بعد يوم. لكنّنا لم نستطع أن نفعل شيئاً. اكتفينا بنصائح، نعلم أنّها سخيفة وكاذبة، وجّهناها إليه بضرورة التزام الراحة..

- دع عنك تنظيف الصحون.. أحدنا يتولّى المهمّة..

وأحياناً كنّا ننصحه بتحسين غذائه..

- الفاكهة والحليب مفيدان..

وحين نتأكّد من أنّه نائم، كنّا نتهامس في ما بيننا في صوتٍ يائس:

- الحرب.. الحرب لا ترحم.. ابنة كلب..

والآن.. لدينا شكوك حول تطوّر حالته المرضيّة، فالأعراض - كما نظنّ - تجاوزت الهلاوس السمعيّة إلى الهلاوس البصريّة..

احتمالٌ لم نستبعده، ونحن نستمع إليه يحدّثنا عن اللون الأخضر للجدران. خطر في ذهننا مثل هذا. أن يكون قد دخل مرحلةً جديدةً من المرض. لكنّنا لم نجزم بالأمر.. قد يكون على حقٍ، وقد لا يكون.. لو كنّا نتذكّر فقط. هل كانت بيضاء بالفعل، كما قال؟.. ليس لدينا جواب.. نسينا..

وسألنا أنفسنا:

- هل الحرب تُضعف الذاكرة أيضاً؟..

ثمّ هززنا رؤوسنا، وصمتنا..

لكنْ؛ من الوارد جداً أن يكون كلام الأربعينيّ صحيحاً. الجدران تغيّر لونُها. أصبحتْ خضراء. لمَ لا؟.. نتساءل لأنّنا لاحظنا أنّ أمزجتنا في ذلك الصباح كانت أكثر اعتدالاً..

- الألوان تؤثّر في الأمزجة..

بالنسبة لي، فقد كان مزاجي قريباً من الأخضر بالفعل.. انتبهتُ إلى ذلك منذ لحظة استيقاظي الأولى، عندما أزحتُ ستارة النافذة. تراءى لي أنّها كانت نافذةً حقاً، وأنّها من زجاجٍ شفيف. كانت تطلّ على بحرٍ أخضر. وفي الأفق، رأيتُ صورة صديقنا الراحل. الثلاثيني.. رأيته يبتسم.. وابتسمتُ أنا أيضاً..

ثمّ استمرّ المزاج أخضر في الساعات التالية..

وأنا مستلقٍ على فراشي في فترة القيلولة، كنتُ أردّد أغنيةً عن مقاتلٍ، يكتب رسالةً لحبيبته. يخبرها معتذراً أنّه سيضطرّ إذا ما التقيا إلى احتضانها بذراعٍ واحدةٍ فقط. يخبرها أنّه لن يتمكّن من تطويق خصرها ومعابثة شعرها في وقتٍ واحد.. ثمّ يعتذر لأنّ خطّه لن يكون مقروءاً بشكل جيّد، فهو لا يكتب باليد التي اعتاد الكتابة بها..

سألتُ نفسي:

- ألا يستحقّ هذا المقاتل أن أصنع له شيئاً؟..

كانوا قد أرسلوا لنا قبل سنوات حجراً ضخماً ومطرقةً وإزميلاً. لم نفهم الغرض من ذلك. سخرنا منهم حينها، وقلنا:

- ليس بيننا مَن يجيد النحت!!..

وبقي الحجر مركوناً في إحدى الزوايا. لم نجد له

استعمالاً قط، سوى أننا كنّا نجلس عليه أحياناً، أو نضع خرق التنظيف المبلّلة فوقه؛ لتجفّ..

- حان الوقت؛ كي نرى ما في داخله..

قلتُ، وأنا أنظر إليه من بعيد..

وبدأتُ.. صدمتني سهولة العمل. لم أشعر أنني أبذل جهداً، أيّ جهد. كنتُ أقشره فقط. أزيل الزوائد العالقة فيه. وكانت الزوائد تتساقط على الأرض من تلقاء نفسها، فيما المقاتل يخرج من أحشائه شيئاً فشيئاً.. وفي النهاية، خيّل إليّ أنه يتنفّس..

الأربعيني المريض والخمسيني كانا يراقبان ما يحدث في صمتٍ وذهول. سمعتُ شهقاتهما عندما انتهيتُ. صفّقا لي. أعني الخمسيني بالذات، في حين كان الأربعيني يحاول فقط.. بدا لي يلوّح بيديه أكثر ممّا لو كان يصفّق..

قال الخمسيني:

- يجب أن يضعوه في أكبر ميادين المدينة..

وعندما حاول الأربعيني أن يعلّق هو الآخر، أخذ يسعل. كان سيختنق. فاقتربتُ منه. عانقتُه، وأنا أهمس في أذنه:

- أفهم ما تريد قوله.. أفهمه تماماً.. لا ترهق نفسك..

تجربة التمثال كانت عظيمة.. انتشيتُ لها. أشعرتْني بأنّني لستُ على هامش الحرب، بل في صلبها..

يومها كان كلّ شيء أخضر، ويسير على ما يرام.. إلى المساء.

دخل الأربعيني الحمّام. ولم يخرج.

الحمّام مرّةً أخرى..

توقّعنا بعد غيابه أكثر من ساعةٍ أن نجده مغمياً عليه. ممدّداً على البلاط. ينزف..

- قد تكون مجرّد إغماءة..

قلناها. لكننا في الداخل، المنطقة الأكثر عمقاً في نفوسنا، كنّا شبه واثقين أنّ الأوان قد فات.. ومع ذلك، فلا يجوز أن نتردّد. واجبنا أن نحاول إلى النهاية..

***

كسرنا الباب..

من المؤسف أن نخسر الأربعيني في هذه الأيّام تحديداً.. كنّا نستعدّ للجولة التالية من عمليّة تغيير الأسماء.. حَدَثٌ يتكرّر مرّةً واحدةً كلّ عشر سنوات.. أن أحمل اسم السبعيني متنازلاً للخمسيني عن اسمي الستّيني، في حين يتنازل الخمسينيّ عن اسمه للأربعيني.. أمّا اسم الأربعيني، فسيتوقّف التداول به..

كانت بضعة أيّامٍ فقط..

ثمّ حدث ما حدث..

عندما دخلنا الحمّام، لم نجده مفارقاً للحياة. لا أعني أنّ مخاوفنا كانت في غير محلّها. الأمر ببساطة أنّه.. لم يكن موجوداً أصلاً..

اختفى الأربعيني.. لا ضرورة للخوض في التفاصيل.. نكتفي بهذا.. هكذا.. اختفى، ولم يخلّف وراءه أيّ أثر يدلّ على أنّه كان موجوداً هنا في لحظةٍ من اللحظات..

لم نسأل طبعاً. عادةٌ بغيضةٌ كففنا عنها منذ زمن طويلٍ جدّاً. تعافينا منها تماماً.. لا إشارات استفهام.. لا إشارات تعجّب.. لا إشارات استنكار.. نتقبّل ما يجري، على نحوٍ طبيعيّ.. وببساطة.. كما هو.. وكما لو أنّه جزءٌ من دورة الحياة العاديّة.. يتكرّر مراراً، حتّى يصبح أمراً مألوفاً، لا يثير الانتباه.. كشروق الشمس، أو غروبها.. أو كشجرةٍ منخورةٍ تسقط. ما الذي نتوقّعه من شجرة منخورة؟.. أو كالقلوب عندما تتضخّم بتأثير الحنين المزمن والمبالغ فيه. ما الذي نتوقّعه من قلوبٍ تضخّمت

حتى كادت تنفجر؟..

اختفى..

فقط..

ودعونا لروحه بالرحمة..

قلنا:

- ضحيّة حربٍ أخرى.. الحرب.. مَن ينجو من ويلاتها؟..
- لنحتفظ بأشيائه.. سنبني له متحفاً، هو الآخر..

ثمّ نظرنا إلى الجدران..

كانت حمراء. متوهجة.. والذراع الوحيدة للمقاتل كانت مكسورة..

وأخيراً..

انتهت الحرب..

الحرب التي أقدر أنّ ملايين من البشر ماتوا فيها. ملايين أخرى من المعاقين. ملايين من الجوعى. ملايين من الذين تقطّعت بهم الدروب، وفقدوا الأمل في العودة. ملايين من منازل الأحلام تداعت فوق رؤوس أصحابها.. الحرب اللعينة انتهت الآن.. كرة النار انطفأت..

على الطاولة، كان ثمّة باقةٌ كبيرةٌ من الورد. يحدث هذا أوّل مرّةٍ منذ سنواتٍ بعيدة. لم يكفّوا - في الحقيقة - عن إرسال الورود. لا بدّ من التوضيح. كانت تصلنا منهم باقاتٌ مختلفة بين الحين والآخر. في المناسبات غالباً. وبدون مناسبةٍ أحياناً. لكنّها المرّة الأولى منذ اندلعت الحرب، تأتي فيها الباقة ورداً أبيض بالكامل..

أفهم لغتهم.. هذا مؤكّد.. لطالما كان الورد الأبيض رمزاً للسلام.

سأسمّيه يوم السلام، وأضيفه إلى قائمة الأيّام الأخرى: يوم المسبح. يوم الباب. يوم الحريق الأوّل. يوم الحريق الثاني. يوم كُسرت نظّارة الخمسيني. يوم الفاكهة. يوم المقبرة. يوم سمعنا صوت امرأةٍ تغنّي، وهي تستحمّ، وحين اقتحمنا عليها المكان، لم نجد سوى ملابسها الداخليّة على المشجب...

يوم السلام.. سأضيفه إلى القائمة، وإذا سنحت لي الفرصة، فسأحيي ذكراه كلّ عام..

والآن.. أتخيل ما يحدث في الخارج. لن ينام أحدٌ الليلة. لهم الحق كلّه.. لا أعرف - بالضبط - كيف انتهت الحرب. بالنصر. أم الهزيمة. أم بنتيجةٍ أخرى.. لكنّهم فرحون.. مؤكّد أنّهم يحتفلون الآن.. لو كنتُ بينهم، لوقفتُ وسط أحد حشودهم، وهتفتُ:

- دعوني أعانقكم..

أشعر بهذا بوضوح.. فرحٌ صغير يغمر قلبي..

لكنني أبحث عمّن يشاركني إيّاه..

- أين أنتم، أيّها الأصدقاء..؟

من المؤسف أنه فرحٌ صغير. وغير صافٍ تماماً. كنتُ أتمنى أن يكون أصدقائي معي. أصدقائي: العشريني، الثلاثيني، الأربعيني، الخمسيني، الستيني، السبعيني، الثمانيني، إلخ.. إلخ... أن يعيشوا هذه اللحظات المجنونة أيضاً، كما أعيشها أنا.. أنا.. إسلام أبو شكير..

***

إسلام أبو شكير..

هل قلتُ هذا؟..

اسمي القديم.. أستعيده الآن..

نعم..

حان الوقت..

لم يعد ثمة ضرورةٌ لأن أحمل أسماء أخرى بعد أن رحل جميع مَن كانوا ينازعونني عليه. غادروني تباعاً..

كنّا نُسمّي أنفسنا بأعمارنا؛ كي لا نختلف. كي نميّز بعضنا فقط. ولأنّ الأعمار متغيرة، فقد كان علينا أن نغيّر الأسماء الجديدة المرتبطة بها أيضاً.. ذكرتُ هذا من قبل.. كان حلاً صعباً، ومعقداً، ومربكاً. عانينا منه طويلاً، لكنه أثبت جدواه. اضطررنا إليه للتخلّص من مآزق كبيرة، كان يمكن أن نقع فيها..

أمّا الآن؛.. فلا ضرورة لهذا كلّه..

إسلام أبو شكير..

لحسن الحظّ أنني ما أزال أتذكّره..

لو أنّ واحداً منهم ما يزال حيّاً، لكان اسمي الآن (التسعيني).. أو (المئويّ).. أو (صاحب المئة

والعشرين).. أو (المئة والتسعين).. أو (الألف).. مَن يدري!!.. لو أنّ الساعة الرَّقْمية التي توضّح إلى جانب التوقيت اليوم والشهر والسنة.. لو أنها لم تتعطل، فربّما عرفت..

لا بأس..

استعدتُ اسمي، إذاً.. صحيح أنّ أحداً لن يناديني به.. ما من أحدٍ أصلاً.. لكنني أنادي نفسي به دائماً، كما لو أنني أريد أن أعوّض بذلك عن جميع السنوات الفائتة.. السنوات التي عشتُها متنقّلاً من اسمٍ إلى آخر.. كما لو من جسدٍ إلى آخر.. أو من منفى إلى آخر..

- يا إسلام أبو شكير.. أ لم يحن وقت الطعام؟..
- يا إسلام أبو شكير.. أنتَ بحاجةٍ إلى حمّام..
- يا إسلام أبو شكير.. اكتبْ لهم؛ كي يزوّدوك بمرآة..
- يا إسلام أبو شكير.. انتبه، وأنت تمشي كي لا تتعثّر.. لم تعد شابّاً..
- يا إسلام أبو شكير.. ما سرّ هذه الأصوات؟.. نقيق الضفادع، والفزّاعات، والأطفال، والنساء؟..
- يا إسلام أبو شكير.. أزح الستارة عن النافذة.. لقد انتهت الحرب، وهم يحتفلون في الخارج.. يقيمون الدبكات، ويتبادلون الأنخاب..

ويخفق قلبي كلّ مرّة، أسمعني فيها، أنادي نفسي باسمي..

هكذا...

أردّده كلّ يوم عشرات المرّات. أناديه. وأنوّع في نبرة الصوت. وطبقاته.. صوتٌ عالٍ. خفيض. ممطوط. حزين. خجول. جريء. متردّد. متماسك. مصقول. مشروخ. غاضب.. أجزب ضمائر المتكلّم والمخاطب والغائب.. أنا إسلام أبو شكير. أنت. هو. كان. كنتُ. كنتَ. كنتم....

قبل سنوات، وكانت الحرب ما تزال مستمرّة، تلقّيتُ

مجموعةً من الفراشات المجفّفة. فراشات بألوانٍ وأحجامٍ مختلفة. كانت مثبتةً على لوحٍ من الخشب. أجنحتها مفرودة، كما لو أنها مصلوبة. لم أفهم لمَ أرسلوها إليّ، فأنا لا أحبّ الفراشات أصلاً. لا أذكر. إلّا إذا كانت ذاكرتي تخونني في أبسط الأشياء، فتجعلني أخلط بين ما أحبّ، وما لا أحبّ.

قلتُ:

- لعلّها وصلتني بطريق الخطأ..

ثمّ استدركتُ:

- هل تعني - يا إسلام أبو شكير - أنّ هنالك آخرين مثلك؟..

كيف لم يخطر لي هذا من قبل؟.. أن يكون مجمّعاً ضخماً، يضمّ غرفاً مشابهة، وأن يحمل نزلاء هذه الغرف اسمي أيضاً، كما حمله أصدقائي الراحلون الذين كانوا معي هنا؟.. ربّما كان أحدهم يحبّ الفراشات، فأرسلوها إليه هديّةً في مناسبةٍ ما. عيد ميلاده مثلاً، لكنّهم أخطؤوا في العنوان.. رَقْم الغرفة..

عشرات الأشخاص، أو مئات، أو آلاف.. محتجزون مثلي.. مَن يدري؟.. جميعهم يحملون هذا الاسم!!.. بمَ يمكن أن أناديهم، لو التقيتُهم يوماً؟.. أعطيهم أرقاماً؟.. إسلام أبو شكير١.. إسلام أبو شكير٢.. إسلام أبو شكير ١٠٠٠.. وهكذا؟..

صباح اليوم التالي بحثتُ عن الفراشات، فلم أجدها. فكّرتُ قليلاً في الأمر، ثمّ قلتُ:

- أنتَ تهذي.. لم تتلقَّ شيئاً أمس.. وهذه الغرف التي تتحدّث عنها وَهم.. محض خيال مريض..

وكنتُ على حقّ.. فحين وصلتني الفراشات ذلك اليوم كنتُ محموماً..

***

والآن..

يستيقظ إسلام أبو شكير كلَّ صباح؛ ليجد رماداً شفافاً على المخدة أشبه بزجاجٍ مطحون.. دموع تبخرت، وتركت ملحها فقط..

- مَن هؤلاء الذين تبكيهم، يا إسلام أبو شكير؟..

لا أدري.. الأرجح أنهم أصدقائي الذين التهمت الأيام أعمارهم واحداً تلو الآخر. لا أعرف سواهم. هم بكلِّ تأكيد. أتذكّرهم. وأبكي..

أصدقائي الراحلون. أتذكّرهم. ولكنْ؛ على نحوٍ غامض. كانوا موجودين هنا. هل كانوا حقاً؟.. لم يتركوا شيئاً يدلّ عليهم. حتى قصيدة الثلاثيني. اختفت قبل أن نصوّب أخطاءها. كيف أعرف إذاً؟..

حان الوقت؛ لأكتب لأصحاب هذا المكان؛ كي يزوّدوني بعناوين أصدقائي الجديدة.. عن أيّ المقابر أسأل، لو أردتُ زيارتهم مستقبلاً؟..

حان الوقت - أيضاً - لأطلب النسخة المحدّثة للخريطة بعد أن انتهت الحرب.. أين أصبح بيتي القديم؟.. في أيّ جزءٍ من البلاد؟.. أظنّ أنّني كنتُ أمتلك بيتاً في ما مضى، وأودّ أن أعرف أيّ رايةٍ ينبغي أن أرفعها على سطحه، لو سمحوا لي بالعودة إليه يوماً..

وسأطلب علاجاً لأنفي الذي فقد حاسّة الشمّ.. سأحتاج إليها عندما أخرج..

وعلاجاً لخدر ساقي.. وذراعي.. ولهلاوسي البصريّة أيضاً.. والسمعيّة..

وفي أسفل الورقة، سأضع توقيعي.. اسمي الجديد:

إسلام أبو شكير

***

ستكون هذه آخر طلباتي. لن أكتب لهم شيئاً بعد ذلك.

سأتوقف. سأقول لنفسي:

- كفى..

قد تمرّ أيّام من الصمت، دون أن يفعلوا شيئاً. لكنّهم سيقلقون بعد ذلك. سيسألون:

- أين هو؟.. لمَ لا يكتب لنا؟.. ألا يحتاج شيئاً؟..

وعندما يطول الصمت أكثر من ذلك.. شهراً.. شهرين.. سنة.. عشر سنوات.. فلا شك أن أوّل ما سيخطر في أذهانهم أنني متّ..

سيقولون:

- هذا الرجل فارق الحياة..

لكنّهم لن يستعجلوا.. سيشاورون بعضهم قليلاً، ثمّ يقولون:

- لن نخسر شيئاً.. هذا أفضل.. ننتظر ريثما نتأكّد، ثمّ نرسل مَن يحمل جثّته إلى الخارج..

وسينتظرون شهراً، أو عشر سنوات، أو أكثر..

وأنا - بدوري - سأنتظر..

لدى جثتي الكثير من الوقت للانتظار.. وأعدهم أنّنا لن نتفسّخ.. كلانا.. أنا وجثتي..